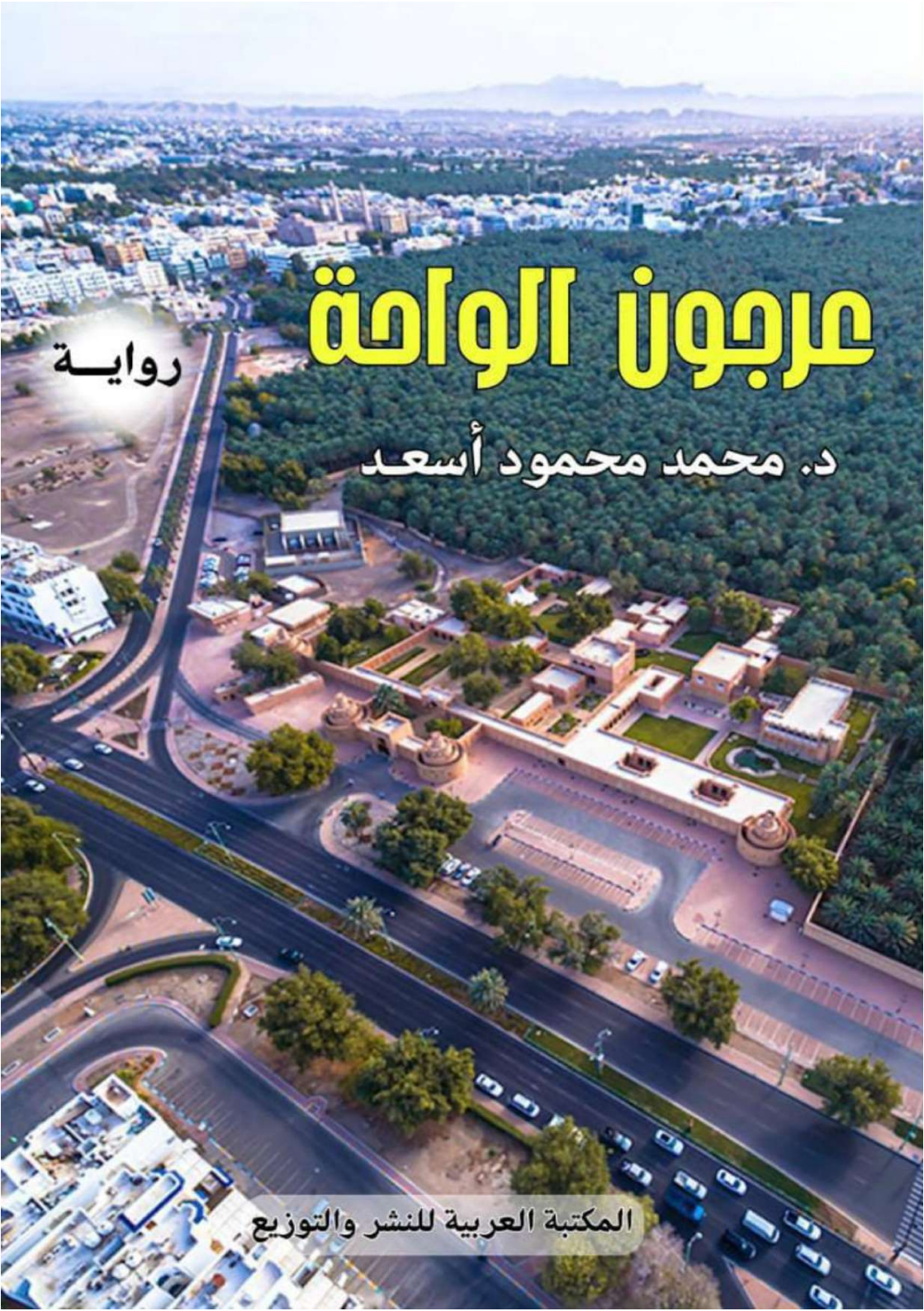
عرجون الواحة
رواية
د. محمد محمود أسعد
المكتبة العربية للنشر والتوزيع

عرجون الواحة

اسم الكتاب:	عرجون الواحة
اسم الكاتب:	د. محمد محمود أسعد
المراجعة اللغوية:	إيمان صلاح الدين
تصميم الغلاف:	فريق شغف
الطبعة:	الأولى
رقم الإيداع:	33323 / 2024
الترقيم الدولي:	978-977-9658-40-7

Gmail	almaktaba79@gmail.com
facebook	Facebook.com/almaktaba79
	01030365801 – 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

عرجون الواحة

روايـــــة

د. محمد محمود أسعد

للنشر والتوزيع
Arabic Library

3

رواية "عرجون الواحة" وإشكالية الاغتراب*

قبلَ أن أبدأ في قراءة الرواية توقّفتُ عند عنوانها، وكان من الجميل أنّ الروائيّ قد فكّرَ بغرابة العنوان من جهة وأصالتِه من جهة ثانية، لذلك قد وضعَ معناهُ في الإضاءة التي سبقَت فصولَ الرواية، إذن ... ماذا تعني كلمة عرجون؟

العُرْجُونُ: العِذْق، ما يحملُ التّمْرَ، وهو من النّخل كالعنقودِ من العنب. والواحةُ المقصودة هنا هي واحةُ العين في دولة الإمارات العربية. المتحدة.

إنّ كتابة الرواية شيءٌ يشابهُ الغوصَ في أحداث مهمّة تؤثّرُ في أعماق النفس البشريّة، إنّكَ حينَ تروي ما لم تدركْهُ العقولُ أو لم تبُحْ به الألسنُ، وتعلنُ أنّ هناك واقعًا يعيشُهُ إنسانٌ، أو مجموعة من الناس ولم يعلمِ الآخرون بسبيل معاناتِهم الذي لم ينقطعْ، فهُنا الاستمراريةُ بجهد الأدب الذي يكون الإنسانُ رسالتَهُ بكلّ مشاعره ومصائبه وأفراحه. وهذا ما تمكّنَ منه الأديبُ والروائيّ د. محمد محمود أسعد الذي قدّمَ لنا روايتَهُ بعنوان "عرجونُ الواحة ."

إنّ الأدبَ يستفيدُ بطبيعة الحال من تعاملِهِ معَ القيم المجتمعيّة التي أحيانًا تتّصفُ بالرجعيّة وتبثُّ واقعًا مؤلمًا لا يزولُ تأثيرُهُ على الأفراد بسهولة، سواء أكان نفسيًا أم اجتماعيًا، ولهذا فإنّ توظيفَهُ في أغراضٍ إبداعيّةٍ ووجودَ المفارقة أساسٌ منه يعطينا درسًا بأنّ الحياةَ التي تتعطّلُ

عند أحد ضحايا تلك القيم تستمرُّ في أماكنَ أخرى، وقد تكون قريبةً منه.

إنّ شفاءَ بطل الرواية "سيّار" وقرارَ عودته المتأخّرة إلى بلده هو العبورُ من ضفة استعباد الصدمة إلى التّحرّر منها، وهي التفاتةٌ إنسانيةٌ هائلةُ المعاني، مع الإشارة إلى كلّ ما كافحَ "سيّار" لكسبه من مالٍ في غربته في واحةِ العين خلالَ خمسينَ عامًا كان قد فقدَهُ أو سُرقَ منه وعاد خاليَ اليدين من أيّةِ ثروة مرتجاة.

تمكّنَ الروائيُّ من الضّرب على وترِ التراث الباكستانيّ وعاداتِه الاجتماعيّة التي أحيانًا تؤذي أبناءَها دونَ رادع.

الروايةُ موطنٌ جيّدٌ، فقد تمكّنَ الروائيُّ من خلق جوٍّ متعادلٍ في الواقعيّة حيث أبدعَ في توظيف الدلالة المكانيّة من خلال ذكرِهِ أماكنَ وتفاصيلَ المدن والمرافقِ السياحيّة في دولةِ الإمارات وواحة العين، كما استطاعَ توظيفَ الدّلالة الزمانيّة من خلال ذكرِهِ عمرَ سيّار وكلَّ المواجهات التي عاشَها المجتمعُ العربيُّ منذُ السبعينات وحتى في ظلّ جائحة كورونا، والتي تزامنَت معَ عام 2020، وبخاصة الشعب الإماراتيّ الذي عاشَ العزلةَ من خلال التزام مواطنيه وتحوّلِ المدن إلى فراغٍ وانعزالِ كلّ الناس في بيوتهم، وهذا يدعوني لأن أخصَّ إهداءَ الروائيّ د. محمد محمود أسعد الذي قدّمَهُ إلى الإمارات البلدِ المشوّق في مواكبته للحضارة والدعمِ الإنسانيّ وإلى واحة العين، فالوقائعُ اليوميّةُ في الرواية مفتتَحٌ سرديٌّ لكلّ مرحلةٍ و فصلٍ.

تعدُّ الروايةُ بما تحملُهُ من دلالة فكريّة اجتماعيّة نفسيّة بهذه الإشراقات المتشكّلة في ذهن الروائيّ وبالتالي فهو يصدرها إلى ذهن المتلقّي.. انتقالةً سرديةً قريبةً من الوقائع التي نقلَها بلغة بليغةِ المعنى، جميلةِ المفردات. وقد كانتِ الإضاءةُ التي وصفَها الروائيُّ في بداية الرواية برقيةً إخباريّةً تمهيديّةً لمضمون الرواية، لنقرأ روايةً حيّةَ النّصّ، ذاتَ حياة متدفّقة، وبالأخصّ لما بذلَهُ من جهد في تدوين أبسط التّفاصيل مستعينًا بدلالةٍ مكانيّةٍ عاليةِ المفعول دعمَها بالتّعاريف التي تتذيّلُ الصّفحاتِ، وتميّزَت بالدّقّة والتّفصيل في المعنى لتعطيَ القارئَ فهماً أوسعَ وتقرّب المعاني والقصد. من هذه التعريفات المشوقة: تعريف رقم 6_جرود: أغصان بلا ورق، وتعريف رقم 7 مسجد الإمام الطّبريّ (451) أربعة أسطر تُعرف بموقع بنائه وكلّ المعلومات عنه، وتعريف رقم 12 المثل الدّارج "إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب" سطران فيهما شرح لقصّة المثل، حتى تجاوز مجموعها (60) تعريفاً وبياناً لكلمات وردت في السّرد، وهذا جهدٌ يُشكَرُ عليه فهي حالةٌ تفتحُ المغاليقَ المبهمةَ لتتّضحَ وتسهّلَ فهمَ ثيمة الرّواية المستمدّة من حياة البطل "سيّار ."

سجّلَ النصُّ الشعريُّ المنثورُ حضورًا في رواية "عرجون الواحة"، وهو نتيجةُ الحراك الذي أبرزَته شخصيةٌ متثاقلةٌ معَ الانطواء والعزلة التي عاشها سيّار واعتادَها كلُّ من حولَهُ كما في القصيدة التي تبدأ" كم كنا وما زلنا نحلمُ أن يُغرّدَ طيرُنا طليقًا بهناءةِ عيشٍ بين أزاهير الابتهاج" التي تمجّدُ حبَّ الوطن والحنينَ إليه. ولما للشّعر من ارتباط بالواقع المجتمعيّ بكلّ صوره حتّى الجانب السّياسيّ والنفسيّ منه فقد كانت تلك

القصيدتان سكبًا رائعًا، واقتصاصًا لصورة شاعريّةٍ وجدانيّةٍ -عاشَها الرّاوي العليمُ في سرد ومواكبة حياة البطل "سيّار"- هي نافذةٌ للبيئة العيناوية (واحة العين) تلك البقعة التي غذّت روحَ ذلك الإنسان المفرط بحساسيّته.

ومن ناحية جوهريّة فإنّ الرّوائيّ د. محمد محمود أسعد قد استلهمَ جانبَ الاغتراب في شخصيّة "سيّار" وأثارَ إشكاليّتَهُ، فالاغترابُ هو المنفى، أي يعيشُ الإنسانُ غربةً قسريّةً عن بلده، فالمهاجرُ يمكنُ أن يعودَ إلى بلده الذي تغرّبَ عنهُ للعديد من الأسباب، وهكذا فإنّ اغترابَ المهاجر مرتبطٌ بأسباب الهجرة، ولكنّ إشكاليّتَهُ ليست في غربةِ المكان بل قد يعيشُ الإنسانُ الغربةَ وهو في بلدِه وبين ناسه، كما حدث معَ "سيّار" حيث شعرَ بعدم الانتماء لعادات مجتمعه حين رفضَ والدُهُ إرسالَ زوجتِه إلى المستشفى بسبب خلوّها من الكادر النسويّ ووجود أطبّاء رجال، وهذا ما يعارضُ قيمَهم الاجتماعيّةَ وأعرافَهم، وكانت نتيجةُ ذلك وفاةَ زوجتِه وجنينِها، فكان ذلك الرّفضُ المبنيُّ على عاداتٍ اجتماعيّةٍ هادماً لكلّ ما حلمَ به البطل. وما مرّ به، أو يمرُّ به الكثيرُ من المثقّفينَ والأدباءِ والفئاتِ التي تمتلكُ وعيًا عاليًا، حيث يعيشون اغترابًا فكريّاً معَ مجتمعهم بسبب تراكم إرهاصاتٍ مجتمعية قد تكون متعارضةً مع القيم الإنسانيّة، وهي ناتجةٌ من تكرار قديمها الموروث من الأفكار التي يُطلَقُ عليها الأفكار الوافدة من هنا وهناك، لكن في حالة باكستان موطن البطل فهي مورَّثَة.

ويبقى التساؤل الذي يطرح ذاته في أعماقنا، وهو ما لمح إليه الروائي د. محمد محمود أسعد عن لسان الراوي:" هل سنبقى حالمين ببرء آمن لحنينا الدائم؟ هل سنصبح في غربتنا عراجين يابسة تذروها رياح عاتية أو تغمرها رمال حارقة لن تكون رحيمة بنا مثل ترابنا القاني وهواءنا العليل.."

*أ. فرح تركي _ بغداد
أديبة وناقدة .
12 أغسطس 2024.

إهـــداء

إلى جميلة الإمارات في بشرها وشجرها وحجرها..
إلى كل شبرٍ في دروبها وميادينها وحدائقها ..
إلى كل نفسٍ غادرتها جسدًا وبقيت فيها قلبًا يخفق وروحًا تهيم.
إلى عروس الخليج.. مدينة الإنسان والجمال ..
إلى العين بمن فيها أُهدي عملي هذا مع بالغ الحب وخالص العرفان

محمد

إضـــاءة

رواية "عرجون الواحة" جمعت قصتين متزامنتين في قصة واحدة، قصة مزارع باكستاني صبور قلبه مُفعم بالرجولة والوفاء قَصَدَ الخليج لتحسين وضعه المادي المتأزم. وقصة مدينة فَرِحَة بجهود أبنائها المخلصين في مسيرة نموها وتطويرها.

قِصتا الرواية جمعهما الزمان والمكان وتباينت بينهما النتائج.

الزمان والمكان: من أوائل سبعينيات القرن الماضي وحتى نهاية جائحة كورونا في مدينة العين الإماراتية.

جاءت النتائج في تباين كبير فحالة سيّار المزارع كانت في تدهور وانزواء مستمر أمضى فيها سنوات غربته التي قاربت الخمسين دون فائدة تُذكر لا هو جمع مالاً فأسعده، ولا هو أخرج نفسه من قوقعة العزلة والحزن إلى عالم هانئ فيه كل ما يُريح الخاطر ويُثلج الصدر فاستراح. بينما في المقابل كانت وتيرة التنمية الشاملة في مدينة العين تتصاعد كل يوم بجهود مُفرحي المدينة فعانقت بجهودهم القمم وأصبحت جوهرة اجتمع فيها ألق العالم.

تناولت الرواية مضاعفات الاكتئاب، والقلق وإضرابات النوم، والعزلة الاجتماعية، والمشاكل الصحية والنفسية عند سيّار المزارع الذي فقد في العام الأول من اغترابه زوجتَه الصغيرة وجنينهما بسبب نزيف حاد أصابها أثناء الولادة في بلده الأم بعد أن تردد أهله في إسعافها إلى مستشفى المدينة المجاورة خوفاً من عرضها على طاقم طبي ذكوري لغياب الأنثوي فيه.

اضطراب ما بعد الصدمة (Post-traumatic Stress Disorder) وحزن معقد أصابا بطل الرواية وسبّبا له حالة من العزلة والصمت وتجفيف العلاقات الاجتماعية.. أبعدته عن كل ما هو جميل في مدينة العين الفاتنة وعن السفر لبلده الأم.

تقابل آخر شهدته الرواية في مشاعر الغربة والحنين وتأثير ذلك على الهوية والانتماء عند سيّار وراوي الرواية، فبينما كان الراوي حريصًا على تفهم حالة البطل النفسية واحتواء وضعه وتقديم النصح له بطريقة حوارية إقناعية وبأسلوب سردي متقطع بهدف تعافيه من حزنه المعقد وأثار ما بعد الصدمة، بقي (الراوي) نفسه حالمًا مثل الكثيرين من أبناء وطنه بالبرء الآمن لحنينه الدائم لبلده الأم (Homesickness) رغم كل ما فيه من أوجاع حرب خوفًا من أن يصبح هو نفسه عرجونًا يابسًا في غربة ممتدة تذروه رياح عاتية أو تغمره رمال حارقة لن تكون بأي حال رحيمة به مثل تراب بلده القاني وهواءه العليل.

المؤلف

جيرة هانئة

لطالما اعتدت من وراء نافذة غرفتي الكبيرة في شقتي السكنية في حي الحصن في مدينة العين[1] الإماراتية أن أرى مشهدًا آثرًا في مكوناته غنيٌّ بمدلولاته.. قريبُه جنةٌ وارفة تعود لألاف السنين، وبعيده مسجدٌ كبير في حجمه حديث في تصميمه بُني على أنقاض مسجد تاريخي[2] قديم كان شاهدًا على حضارات إسلامية متتابعة، وأبعده جبلٌ شامخ في علوه وغنيٌّ في مكنوناته التاريخية ولُقاه الأثرية.. يُشكل حدًا طبيعيًا فاصلاً بين الجارتين.. الإمارات الحبيبة وسلطنة عُمان.

واحة العين[3] ومسجد الشيخ خليفة[4] وجبل حفيت..[5] لؤلؤة ثلاثية الأبعاد رصعت صدر أجمل مدينة مأهولة في شرق الإمارات دون

---

11 العين: مدينة حدودية مع سلطنة عُمان تابعة لإمارة أبو ظبي، هي رابع أكبر مدن الإمارات في عدد سكانها الذي قارب المليون نسمة، تُوصف بمدينة الحدائق في دولة الإمارات. تمتاز بشوارعها المشجرة وطرقها السريعة التي تربطها بأبو ظبي ودبي بحيث يشكّلون معا مثلثًا جغرافيًا متساوي الأضلاع في وسط الإمارات، كان يطلق عليها واحة البريمي،. تعتبر العين من أجمل مدن الخليج وضمن أقدم المدن المأهولة فيها عبر التاريخ، تمتاز المدينة بطابع خاص من جمالية الطبيعة وهدأة الحياة ورحابة المكان.

2 مسجد تاريخي قديم: مسجد يعود إلى الفترة الذهبية المبكرة من العهد الإسلامي في فترة الخلافة العباسية قبل نحو ألف عام اكتشفه علماء الآثار في دائرة الثقافة والسياحة مع أثار إسلامية أخرى بالقرب من موقع بناء مسجد الشيخ خليفة في العين، وقد تضمنت المكتشفات عدة أفلاج (أنظمة ري) وثلاثة أبنية عل الأقل كان منها المسجد التاريخي المذكور.

3واحة العين: أكبر واحات مدينة العين الخمسة، تقع وسط المدينة وتبلغ مساحتها 3 كم

انقطاع.. قِيمَة فنية وإرث عريق.. هي العين بواحتها الغناء ومسجدها الكبير وجبلها السامق. كل شبر فيها له حكاية.. كل شارع فيها له من القصص الكثير.. هي ليست مدينة بل عروس المدن..

هي قصة خالدة وُجد فيها البشر قبل الحجر ...زيّنتها واحات خمسة وعَمّرها مخلصون أوفياء فتنعم بعيشها المحبون والعاشقون للجمال والهدوء.

مربع ينمو فيها قرابة 100 نوع من النباتات و147 ألف نخلة موزعة على عدد كبير من المزارع المنتجة. تستقبل مختلف الزوّار لاكتشاف المركز البيئي التعليمي وأساليب توزيع المياه بقنوات سقاية معروفة بالأفلاج، والتجوال بين مجموعة واسعة من الممرّات المُظلَّلة بالأشجار والدروب المرصوفة، أدرجت الواحة على لائحة قائمة التراث العالمي لليونسكو عام 2011م.

4مسجد الشيخ خليفة: أكبر وأجمل جامع في مدينة العين يقع وسط المدينة على مساحة 256 ألفاً و680 متر مربع يتسع لأكثر من 20 ألف مصل يتميز بتصميمه الفريد وارتفاع مآذنه الأربعة (76متر)، وقبته الضخمة (ارتفاع 29م، محيط داخلي 78 م، محيط خارجي86م) التي تحمل نقوشا ولوحات قرآنية متداخلة تزين داخل القبة وسطحها كتبت بحروف كبيرة وبارزة من خط الثلث العربي.

5جبل حفيت: يقع إلى الجنوب من مدينة العين ويرسم الحدود الجغرافية بين الإمارات وسلطنة عمان. ارتفاعه 1240 م، من الأسفل يبدو الجبل لناظريه مثل حوت على شاطئ، اكتُشفت في محيطه آثار مهمة منها 500 مدفن أثري يعود تاريخها إلى ما يزيد على 5000 سنة. عند سفحه تقع منطقة ينابيع حارة وبحيرة "المبزرة الخضراء" والعين الفايضة، وإلى الشمال الشرقي منه يوجد واد كبير يسمى وادي التربا.

في إحدى أمسيات شهر آذار/مارس 2022 وقفتُ بصحبة ضيفي زميل العمل في الجامعة أمام نافذتي تلك المطلة مباشرة على واحة العين نراقب معًا غروب الشمس ونشاهد آلافًا من أشجار النخيل المصطفة على مد النظر يرجع أصولها لألاف السنين كونها رافقت وجود الإنسان في المنطقة وسبقت البنيان.. أشجار كأنها ورود متفتحة متراصة تبتسم للشمس وتهفو للحياة، جرودها[6] وسعوفها السفلية ممتدة في كل الاتجاهات تظلل المزروعات، وأما العلوية منها مثل أياد مرفوعة بالدعاء لرب السماء.

يا لها من أشجار كثيفة وفارعة قياسًا لنخيل المزارع الأخرى..

كثيفة مثل مظلات الحرم المتكاتفة مع بعضها البعض تتحمل وهج الشمس وحرارة الطقس في سبيل حماية من يمكث تحتها من قيظ حارق وخطر تبخر وشبح جفاف.

طويلة بارتفاع شقتي في الطابق الرابع مثل مراوح عامودية عملاقة أخذت على عاتقها مهمة تلطيف جو البيئة المحيطة.

اقتربت شمس ذلك المساء من غروبها بوهن وازدات حيرتي بين إطفاء جهاز التكيف وبين بقائه مشتعلاً، فتحت النافذة للإطلالة منها على الحركة المرورية والبشرية التي كان يشهدها وسط المدينة والواحة قُبيل الغروب، لكنني أغلقتها من جديد لعدم اعتدال طقس المساء بعد.

مرت لحظات ثم عاودت الفتح من جديد، نسمات لطيفة بدأت تداعب جرود النخيل وسعوفها يمنة ويسرة، على الفور أُطفأت جهاز

---

6 جرود: أغضان بلا ورق

التكيف المركزي وفتحت النافذة على مصراعيها فوصلت لمسامعي أصوات زقزقة العصافير وتغاريد الطيور من داخل الواحة، وأصوات هدير السيارات المتصاعد من الشارع المجاور جراء اخضرار إشارة مرور المربعة وهيجان السائقين في تسريع محركات سياراتهم تجنبًا للوقوف على الإشارات المتتابعة لكن بدون تجاوز الحد الأعلى المسموح به من السرعة خوفًا من لمعة الرادار وتسجيل المخالفات المرورية والنقاط السوداء.

بينما كنت أجلس على كرسي معدني هزاز خلف النافذة المفتوحة، أحاديثٌ عدة أخذتني مع ضيفي الهندي زميل العمل في الجامعة عن أخبار بلدي المأسوية هناك في الشام، وعن خوفنا المشترك من عدم تجديد عقود العمل، وعن يونيو من كل عام وكيف أصبح لأغلبنا شهر رعب ونذير شؤم، وعن عنجهية بعض موظفي إدارة الموارد البشرية وطريقة تعاملهم الفظة معنا كزملاء عمل، وعن مدى مصداقية نتائج استبياناتهم عن الرضا الوظيفي، رغم اتفاقنا الدائم على أن حياةً سلسلة وخالية من التعقيدات نعيشها نحن الوافدون هنا في الإمارات لولا ازدواجية تفكيرنا بين هنا وهناك في البلد فدائمًا أعصابنا مشدودة وعقولنا مشغولة بتجديد عقود العمل من عدمه والخوف من الخروج المفاجئ من هنا والرجوع غير الآمن إلى هناك، فلا يمكن لأحد منا أن يتجاهل شح الحياة الاجتماعية هنا مقارنة بخصوبتها هناك، فلا العيد فرحة في الغربة رغم أنه شعيرة دينية، ولا الجِار ألفة رغم حقه العظيم.

رغم هناءة العيش وجودة الحياة في الإمارات تبقى الحياة الاجتماعية للغرباء مرهقة، بيوتها باردة وأهلها مضطربون، الجميع خائفون من

المفاجآت، الجميع مشتاقون إلى الراحة النفسية قبل البدنية هناك بين الأهل، ولكن أين السبيل إلى ذلك هناك بعدما كل ما تدمر في إنسانيتنا قبل أبنيتنا.

غير مبالاً لهما، أدرت ظهري إلى فتْحَتّي التكيف المركزي الكبيرتين في أعلى جدار الغرفة ورحت أوزع نظراتي بسرور بين ضيفي الجالس على أريكية وثيرة قريبة مني، وبين شمس بدأت تُداعب ثغر المساء بين مآذن جامع الشيخ خليفة الأربعة ساكبة خيوط أشعتها الذهبية فوق خطوط قبته الكبيرة فجعلتها أشبه بشمسٍ أخرى تشع بهاءً أمام الناظرين.

فجأة، قام صديقي الضيف من مجلسه واقترب من النافذة المفتوحة وكأن شيئًا من ذكرياته الجميلة قد داهم عقله الباطن وقال:

- أنتم في جِيرة هانئة هنا، مشهد الغروب عندكم يا صديقي. مشهد آسر

بينما كنا في أحاديث شتى قُبيل المغيب بدقائق، وصلت إلى مسامعنا أصوات عمال الواحة منهم من يغني ابتهاجا بنهاية يوم عمل شاق ومنهم من يصيح بكلمات أوردية لم أفهمها:

- آپ کمرے میں نہیں جانا چاہتے
- نہیں
- کیوں
- میرے پاس ابھی بھی کام باقی ہے
- ٹھیک ہے، وزیر کی نوکری آپ کا انتظار کر رہی ہے

ثم تعالت الضحكات من القائل ومن كان قربه

التفت إلى صديقي الضيف مستفسرا عن معاني ما سمعنا، فأجاب:

- ينادون على بعضهم للذهاب إلى مسكنهم، لكن منهم من يعتذر لأن لديه عمل لم ينهيه بعد، فيردون عليه بسخرية بأن وظيفة الوزير بانتظاره.

- إذا هي قضية تنمر؟!

لفضولي وقربي من مكان أصواتهم، أطللت على الواحة لأتعرف على الشخص المُتنمّر عليه، كان هو العامل الباكستاني الذي قارب السبعين عامًا الذي أعتدت أن أراه في مسجد الحارة "مسجد الإمام الطبري[7]".. اسمه "سيّار" هو من تجاهل واعتذر ليبقى مشتغلاً في مكان عمله اليومي القريب من سكني في الطرف الجنوبي الشرقي من الواحة التي بدأ العمل فيها في سبعينيات القرن الماضي، بينما المُتَنمِرون كانوا رفاقه عمال الواحة رغم صغر سنهم كانوا يلمزونه ويغمزون عليه بأن قرار تعينه وزيرًا بات قريبًا متهمين إياه بالاجتهاد في تأخيره المعتاد بالعمل لممالقة

---

7 مسجد الإمام الطبري (451 في ترقيم هيئة الشؤون الإسلامية والأوقاف) مسجد قديم بُني في عام1977 ميلادي = 1398 هجري بالقرب من واحة العين. أعيد بناؤه وتوسعته في عام 1988 على نفقة المرحوم محمود محمد البلوشي ليواكب تطور المنطقة التي راحت تزدحم بالعديد من الأبنية السكنية والتجارية مثل سوق المواشي والمسلخ = وسوق السبوس والصيدليات البيطرية ومختلف الأنشطة التجارية. تم تحديث المسجد وتوسعته للمرة الثانية في عام 2022 ليستوعب قرابة 1000 مصل مع إضافة مصلى جانبي للنساء وحمامات وميضأتين وتكيف مركزي.

صاحب المزرعة وأولاده والتقرب منهم طمعا في منصب أرفع أو في زيادة أجر..

يبدو أن غيرتهم الوظيفية من زميلهم صارت واضحة وفاضحة خاصة أنه قد حصل على زيادة قبل خمس سنوات.

متجاهلاً غيظهم، وقف الرجل منتصبًا بعد ذهابهم، مسح جبينه الأسمر المتصبب عرقًا ولوّح للشمس قبل أن تغيب عن الواحة وتجعلها مقفرة خالية من أي إحساس أو نور راجيًا منها ألا تتأخر عليه في الإشراق كي تلجم ليله الطويل الذي اعتاد أن يقضيه وحيدًا في نور خافت تحت سماء قانية مطرزة بحشد من النجوم.

يوم جديد وإشراقة جديدة، ها هي الواحة تتنفس فرحًا حينما ابتسم لها الصباح وغمرها بجميل الضياء.

طالما اعتاد سيَّارٌ ورفاقه المزارعين في الواحة أن يصحوا مع بواكير قطرات الندى، فغالبًا ما تتلاقى أصواتهم مع أصوات الطيور في أجواء فَرِحَة طالبة رزقها بغدو ورواح.. أجواءٌ فيها أشجار تنتعش برحيق الندى فتشق طريقها نحو السماء، وأرض تُوقن أن ربيعا قادمًا مع الزهور والأمطار، وصُبحٌ يُبشّر بوصول سحاب يُدغدغ الأرضَ العطشى، وأنامٌ تأمل أن الخيرَ قادمٌ والأمر بيد الله.

في كل الفصول واحة العين بهية جميلة لكنها في الربيع غير، فيها تستيقظ الأشجارعلى إشراقة خجولة لشمس أذار، فيها تبدأ الطيور

سعيها الصباحي بملامسة الأرض ومصافحة السماء، فيها تنساب المياه رقراقة عبر أقنية منها مغطاة وأخرى مكشوفة تتوزع بين المزارع حسب جداول ري متفق عليها مسبقا، فيها تُداعب أشعةُ الشمس سعفَ النخيل بابتهاج فتتمايل لتلامس أرضية الواحة ودروبها للحظات فتضفي على الجميع انشراحًا هانئًا وأملاً جديدًا بالحياة .

تستمر شمس آذار في رحلتها اليومية بين شروق وغروب، وتأبى الفراشات الملونة إلا أن تُشاركها فرحتها في تلوين لوحة الربيع بوثوبها بين الزهور والأعشاب ضاحكة مستبشرة منافسة في ذلك حشود النحل النقّال الممتص لرحيق الزهور، والنحل المضّاغ في رحلتهم الأزلية في تصنيع الأعسال.

عِشقُ سيَّار لعمله وتفانيه فيه رغم سخرية رفاقه جعله ابنًا بارًا للواحة عاش فيها سنين طوال فعاشت فيه وكان لها خير المحبين، أعطاها جهدًا فكافأته حُبًا وضمًا حتى أصبحت مزرعته التي يعمل فيها خميلة وارفة نخيلها سامق ورطبها جني مبارك وعسلها طهور وأزاهيرها تتراقص في حضرة خادمها الأمين.

واحة العين أشبه ببستان كبير جدا أو غابة خضراء رحبة بمساحة تقترب من (3) آلاف دونم مقسمة لمئات المزارع الأهلية مفصولة عن بعضها بعضا بطرقات مرصوفة مسورة بجدران تراثية حجارتها نافرة من كل جانب. للواحة التي أُدرجت على قائمة التراث العالمي في اليونسكو لإرثها العريق أبواب ثلاثة أحدهم قرب المتحف الوطني والحصن الشرقي المعروف أيضًا باسم "قلعة السلطان" التي كانت تقع سابقًا في قلب القرية

القديمة أو حارة العين أو الحصن، والباب الثاني إلى جانب متحف قصر العين[8] والثالث قرب سوق النسوان القريب من أسواق الذهب والخضار والفواكه واللحوم ومحطة الباصات،

لا تقتصر مزروعات الواحة على أشجار النخيل كمستوى أول (أعلى) بل يوجد عدد كبير جدا من أشجار الفاكهة الأخرى مثل المانجو والبرتقال والموز والتين والعناب (المعروف محليًا باسم السدر[9]) كمستوى ثان هذا بالإضافة لزراعة أرضية المزارع بمزروعات حقلية منها محاصيل علفية وأخرى عشبية لأهداف تجارية.

8 متحف قصر العين: يقع على الجانب الغربي من واحة العين، كان البيت السابق لمؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة ورئيسها المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان (1918-2004)، ومركزًا للنشاطات السياسية والاجتماعية. شيد القصر في العام 1937، وتمت إعادة ترميمه في عام 1998، ومن ثم تم تحويله إلى متحف عام 2001، مع المحافظة على بعض الغرف العائلية والمرافق الإدارية التي أُثِّثت بشكل يُماثل الوضع الذي كان عليه القصر

9 السدر: أشجار (العناب/ السدر/ النبق) ذات جذور متعمقة تتحمل الظروف البيئية القاسية إلا أنها تحتاج لشتاء دافئ تنمو في المناطق الحارة والمعتدلة. ثمارها حلوة المذاق مرتفعة القيمة الغذائية وتعتبر من أنواع الفاكهة المتميزة. كما أن لها استخدامات في الطب الشعبي فهي مفيدة في حالات أمراض الصدر والتنفس وهي مسهلة ومنقية للدم.

فَرحةُ مدينة

صحيح أن مدينة العين الآن مدينة فَرِحة مُبهِجة لمن فيها لاخضرارها الدائم وعيشها الرغيد وسلاسة يومها وروعة مناخها، وصحيح أن فيها يجتمع كل ألق العالم، وصحيح أنها تُدلّع ساكنيها، لكنها أيضًا تزداد فرحًا بمن يُفرحها.. بمن يتفانى في خدمتها وتطويرها.

ليس شرطًا لأن تكون مُفْرِحَاً لشيء أن تكون صاحب سلطة مؤثرة عليه أو مال وفير، قد تكون مُفْرِحَاً له بكلمتك الصادقة وشخصك النبيل وفِعلك الحسن.

عادة تفرح المدينة بتفضيلها عن غيرها وإعطاءها العناية والاهتمام بدون تدليس أو نفاق مثلها مثل الأطفال.. قليل يُغنيهم وقبلة تُرضيهم.

فرحة المدينة قد تكون لأبسط الأسباب ومن أبسط الصادقين مثل أم تطير فرحًا بنجاح طفلها في "الكي جي."

المدن ليست كتل أسمنتية وشوارع إسفلتية، المدن حدائق غناء مزهرة بمحبيها، دُوحٌ وارفة مثمرة بمؤنسيها.

لطالما شُبهت المدينة بأم يهفو قلبها لجميع الأطفال، وليس ذلك عند الرجل، تحتضن هذا وتلاعب ذاك، تفرح لفرحهم وتتكدر لدمعهم، تحتضنهم في الملمات وتحنوا عليهم في المسرات، الأم لا تطرد أحدًا من أولادها حتى إن عصاها، تستقبله متى شاء، وتسامحه مهما فعل، الأم قلب كبير بلا منازع.. كذلك هي المدينة.

المدينة دائما حانية على أبنائها تحنو عليهم في حضور وتتذكرهم في غياب رغم كل ما تتعرض له من خيباتهم، هي لا تلفظهم كما تفعل البراكين بحممها والبحار بكائناتها النافقة، هي تحتوي المخلصين منهم بود، وتأمل من المنافقين الصلاح، هي تحزن بأسى على من رحل عنها بخيبة أو بسفر لا رجعة فيه أو من اختطفته يد الموت بقسوة. هي دائما تتذكر الأوفياء والصالحين منهم بخير.

لطالما كانت فرحة المدينة عارمة بنجاح طلابها وجهد عمالها وتفاني مزارعيها.

كم تكون فرحة المدينة كبيرة جراء خطوة يتخذها أبناؤها المخلصون في طريق تطويرها ونموها.

كم تكون المدينة سعيدة من أي جهد مهما كان بسيطًا أزال عثرة من دروبها وأضاف وردة في طرقاتها .

كم تكون المدينة مسرورة من أبنائها البارين الذين اجتهدوا ونجحوا في أعمالهم وكان لهم بصمات في نجاح، ومراتب في رفعة.

حقاً إن المدن تحب من يحبها ويسعى إلى إعمارها ونماءها لا من يأكل منها ويسعى في خرابها

المدن تُنزل الناس منازلهم بمعايير منضبطة بضوابط العطاء والصدق والمروءة لا بمعايير الكسب الفاحش ونشر الفساد والرذيلة .

فرحة المدينة تتعاظم بساكنيها المعطاءين لا بسارقيها المحترفين، فرُب مزارع في مزرعة، أو خادم في مسجد أو عامل في مصنع، أو شيخ في محراب لا يدري به أحد يزن باعتبارات المدينة آلاف الرجال

ليس الإنسان وحسب هو مُفرح للمدينة وإنما أيضًا مؤسساتها وما قدمت لها من خدمات، وأماكنها وما جمّلت، وأمسها وما كان، وواقعها وما يكون، ومستقبلها وماذا سيكون.

كثيرون هم مفرحو مدينة العين.. واحاتها الغناء مُفرِحَة ونخيلها الباسق مُفرِح، وقاطنوها الأوفياء مفرحون.

كان المغفور له بإذن الله الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيب الله ثراه من أوائل مفرحي العين فعلى يديه الكريمتين شهدت المدينة تطورًا متصاعدًا ضمن مسيرة النهضة الشاملة التي قادها بكفاءة مع الإعلان عن دولة الاتحاد وكان للإنسان النصيب الأكبر فيها باعتباره محور الأساس في عملية النماء الإنساني والاقتصادي والاجتماعي فبُنيت له المدارس وشُيد المشفى الأول وأنشئت الجامعة الأم وبدأت المدينة بتوسعها الأفقي والعمودي ونالت البنية التحتية في المدينة الاهتمام فُشُقت الطرقات الإسفلتية وأُنشئت مدينةِ ألعابٍ الهيلي وأُسست أولَ حديقةَ حيوانات في المنطقة، وأُقيم أول متحف وطني بالدولة وأُعطيت الزراعةِ حقها الكامل في عملية التحول والنماء من خلال مُحاربةِ التصحرِ، وتوسيعِ المسطحات الخضراءِ، والعملُ على تحقيقِ الأمن الغذائي و المحافظةِ على البيئة.

من مفرحي العين أيضًا مواطنون استوطنوا الأرض وعاشوا فيها واسهموا في مسيرة النهضة الشاملة تلك واستمروا فيها رغم ضراوة الطقس وصعوبة الحياة، ثم جاؤوها وافدون من كل حدب وصوب جذبهم ظهور النفط وبريق المال، منهم مفرحون أشبه بفراشات ملونة

ومنهم دبابير تلاعب نور الذخائر أحيانا بعلن وغالبًا بدهاء، كلهم جاؤوها بسفر قاصد رغم بُعد المسافات ينشدون أمالا كبيرة بحجم السماء.

منهم أطباء خط دفاع أول خففوا أوجاع المرضى في مراكز ومشافي حكومية وخاصة كانت قليلة بعض الشيء ثم تضاعفت عددا وعدة.

ومنهم مهندسون خططوا المدينة ورفعوا فيها صروحًا وشقوا شوارع وطرقات وأنشأوا مبانٍ وفللاً وجسورًا وأنفاقًا.

ومنهم معلمون محوا الأمية وعلموا الحرف وزينوا السطر ورفعوا الشأن والتقدير في المدارس والجامعات.

ومنهم موظفون بينوا الدرب وسهلوا الإجراءات وكان لهم بالتطوير إصبع وباع .

ومنهم أصحاب مهن وعمال ومزارعون رفعوا البنيان وزينوا المكان وقدموا خدمات جليلة ما كانت لتصير لولا وجودهم وتفانيهم في أعمالهم .

من مفرحي العين عربٌ أقحاح وعجمٌ أسيويون وغربيون وصلوا إلى العين منذ ستينيات القرن الماضي طمعًا في استقرار معاشي ونمو مالي. منهم من اشتغل بوظائف ورواتب شهرية في أعمال حكومية أو خاصة، ومنهم من عمل لحسابه في مصلحة تجارية أو صناعية. إن جادَ في عمله نجح، وإن خابَ فيها خسر مادّيًا وتضرر.

في كل مكان في مدينة العين، وفي كل قطاع فيها، تجد أناسا فَرحين بما كسبوا وبما هم فيه من بسطة عيش، لكنهم ليسوا بمفرِحين للمدينة. كثيرٌ منهم يتصيد الخطأ أو يستقبله قبل وقوعه، ويستدبر الصح

ويهمشه مهما كان. سلبيتهم سُم زعاف، وفحيحهم صوت لا يُطاق، ونفاقهم حال، والعياذ بالله. بالمقابل، تجد أشخاصًا مفرحين للمدينة، لهم الدور الكبير في ريادتها ونمائها واخضرارها.

سيّار.. قصة بألف

حينما يتجمّل المكانٌ بزهو أشجاره وسحر جماله ويُسعد كل من زاره واستنشق عطره، تأكد بأن ذلك يعود لفضل من الله ولأياد أمينة وقلوب رحيمة تفانت في تجميله وعملت فيه بكل إخلاص فاختارت له مزروعات تناسبت مع تربته الطيبة تزهر فيها الورود وينبت فيها من كل زوج بهيج، كل ذلك وأكثر تراه عزيزي الزائر في واحة العين بشكل عام ومزرعتها رقم 42 بشكل خاص حيث مزارعها الأمين سيّار أحد حراس الطبيعة وبيارق الإنسانية.

بإرادة رجل لم تسقط يومًا عن جبين العزيمة والإصرار تحوّل ما كان أصفرًا في مزرعته تلك إلى أخضر يانع، إنه سيَّار.. المزارع الباكستاني البسيط، الذي لا أزكيه على أحد، لكنني أراه كذلك لإخلاصه في عمله وتفانيه في أدائه رغم بساطة عيشه وقلة دخله.. {خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ}[10]

سيَّار.. ذلك الرجل الصامت الذي قارب السبعين من عمره والخمسين في عمله كمزارع مجتهد في واحة العين، يُعتبر واحدًا من اثنين من المعمرين المتواجدين في الواحة جاؤوا إليها كعمال مزارعين في سبعينيات القرن الماضي، هو والرجل الأخر الذي نراه منحنيا الظهر سارحا في دروب الواحة والشوارع القريبة منها أو واقفاً عند إشارات المرور بلباسه الشبابي.. قميص ملون تيشرت وبنطلون قصير (بنتكور)

---

[10] الآية 26 من سورة القصص

يستوقف هذا ويستعطف ذاك، بينما سيَّار أبدًا لا يتوانى في نهاره أن يكون مشغولا طوال الوقت بأشغال المزارع المتابع بلا كلل ولا ملل، أمينا بعمله يملأ كل وقته في المزرعة بما يفيدها من أعمال دورية واحتياجات، لو جالسته لساعات لا تمل من وجوده لحديثه المقتضب وعدم تدخله بما لا يعنيه، إن تحدث ففي كلامه حكمة وإن سكت ففي صمته عبرة.

بعد أن تعرفت عليه في مسجد الحارة كُدت أجزم أن وراء صمته معاناة كبيرة بحجم جبل

في بداية معرفتي به منذ سنوات استغربت من تقربي منه وتعاملي مع شخص صامت لا يقبل المساعدة ولا يتكلم إلا القليل، شخص أشبه بالأخرس. كان شكي خاطئا عندما ظننت أن قلة حديثه كان مرتبطا بمضغ النسوار[11].

وقتها تساءلت إن كنت سأكتفي بالابتسامة في وجهه وأتكلم مع نفسي في حضوره، أم أنه سيغلبني ويعلمني الصمت؟

صحيح يا صاحبي أن جزءا كبيرًا من منطوقنا اليومي بدون فائدة ومجرد تمضية وقت أوادعاء بمعرفة أومجاملات، وصحيح أن قليلي الكلام هم الأقرب إلى الهدوء والأجدر بالاستماع إليهم، وصحيح ما قاله

---

11 النسوار: أرخص وأخطر أنواع التبغ الذي لا يدخن بل يمضغ، وهو عبارة عن أوراق تبغ مجففة ممزوجة ببعض المواد الأخرى مثل الجبس أو الجير والرماد والمنكهات بهدف الجذب والإغراء. يأتي على شكل مسحوق أخضر اللون يباع في أكياس بلاستيكية شفافة أو على شكل معجون أخضر يضاف إليه الليمون. موطنه الأصلي دول شرق أسيا (أفغانستان) ثم انتشر للجوار والخليج وأوروبا.

الأقدمون "إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب"[12] فلو أخذ بها كثيرو الكلام لاستراحوا وأراحوا من حولهم لأن سكوتهم غالبًا ما يكون أكثر قيمة وفعالية من كلامهم، وصحيح أن السكوت أفضل مليون مرة من الكلام في حالة الغضب، لكن ليس لحد مقاطعة الجليس، وعدم الترحيب بالضيف ومحادثته، والتهرب من إعطاء النصيحة الصادقة إن طُلبت، وقول الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أليس السكوت عن الخطأ خطأ والتستر على جريمة جريمة أو جنحة يُعاقب عليها القانون؟

بُعد سيّار عن بلده وأهله وتعوده على ذلك أصابه بحالة نسيان ممتدة. خمس وثلاثين عامًا لم يسافر فيهم إلى بلده بعد وفاة زوجته هناك.

أتراه قد نسي أهله وبلده ونسي كل شيء هناك؟

هل أصبح يرى في حياته فقط أشجار نخيل الواحة وبِضْعَ غرباء حوله أصبحوا جزءا لا يتجزأ من يومه؟

12 مثل شعبي يرجع قوله لحكواتي أستأجره عجوز مريض ووحيد كي يسليه ويقص عليه القصص، بعد فترة مل العجوز من كثرة كلام الحكواتي فطلب منه السكوت مقابل أن يعطيه مالاً أكثر.

في سبعينيات القرن الماضي، تزوج سيَّار ابن الـ 20 عامًا من احدى بنات بلدته النائية في شمال غرب الباكستان بناءً على رغبة والديه دون أخذ رأيه في ذلك، فرأي الوالدين هناك وخاصة رأي الأب دومًا هو المتبع وأي اعتراض عليه من الأولاد يؤدي إلى حرمانهم من الرضا وقد يصل إلى الحرمان من الميراث والطرد من بيت العائلة بالنسبة للذكور.

زواج سيَار من "زهرة الحياة" ابنة الـ 15 عامًا كان زواجًا تقليديًا مرتبًا من قبل الأهل استخدمته عائلته كوسيلة تعزيزية للربط بين العائلتين تحقيقا لتوازن اجتماعي واقتصادي فيما بينهما مثل أي مجتمع تراحمي يُعطي أولوية للعلاقات العائلية على حساب الاختيارات الشخصية وكأن في تلك المجتمعات تتزاوج العائلات وليس الأفراد..

في البدء، لم يشعر الزوج الشاب برابط قوي تجاه زوجته كون علاقته معها جاءت عن طريق الإملاء والفرض لا عن طريق الرغبة والتفاهم ولا تتويجًا لحب متبادل، علاقة تقليدية رأوها الأهل مناسبة فشرعوا في بنائها دون أسس وقواعد متينة أو حتى معرفة قوية بين المعنيين فكل شيء كان تقليديًا واستجابة فورية لإملاءات الأهل ونداءات الطبيعة البشرية، لكن جمال البنت وطيب معشرها كانا سببا قويا لجذب قلب الشاب الباكستاني وتقريب بُعده عنها دون إفصاح منه احتراما لأعراف شرقية لا يمكن لأحد مهما كان الخروج عنها.

عاش الشاب الفقر والمكابرة قبل وبعد الزواج وكابد شظف العيش أيام يفاعته وزادت معاناته بعد الزواج، غِلظَته وحدة طبعه كانتا طبعًا لا تطبعا أخذه من طبيعتهم الجبلية، بعد زواجه كان يغضب لأتفه الأسباب في وجه زوجته الصغيرة وإذا استرضته وحاولت أن تُهدّأ من ثورته شبه الدائمة ازداد حنقا مثل نار تتغيظ وتزداد لهيبًا ودخانا حينما تُرش بماء.

بدأ سعيه عن فرصة عمل كعامل يومي داخل بلدته ثم امتد للمدينة الصغيرة القريبة منهم ثم الأكبر والأبعد، بحث وتواصل مع كثيرين لكن دون جدوى، وفجأة جاءه الفرج بترتيب من ابيه حينما جاءته فرصة العمر بسفر وعمل خارج الباكستان عن طريق شيراز خان.. أخ زوجته، رغم استيائه من فكرة السفر البعيد وابتعاده عن أهله وزوجته والعيش وحيدًا في مكان تختلف فيه العادات واللغة ويبقى الدين فقط هو الجامع المشترك.

بالبداية تذمر واعترض لكن لندرة الفرص بالداخل اقتنع بالخارج خاصة وأن أخ زوجته هو من سيستقبله في دبي ويقدم له يد العون.

قضى الزوج الشاب عامه الأول مع زوجته وأوصى على مولود قبل أن يترك بلده ويُبحر بزورق العمر كمئات الألاف من الشباب الباحثين عن فرصة عمل تقيهم شر الحاجة وصعوبة مد اليد حتى للوالدين بعد الزواج.

متوكلاً على الله، اعتلى سيّار بساط الأمل ليُريح عن فؤاده الفاقة ويثلج صدره وينفي عن نفسه مغبَّة الهجر والضجر، حالمًا بتغيير حال حتى ولو كان خارج الحدود.

بقلوبٍ خافقة بآمالٍ عِظام، وحالمة ببروق السعادة وصل المسافر إلى شواطئ الخليج في دبي في سبعينيات القرن الماضي وبدأ العمل بقطاع الإنشاءات الذي كان يُفضّل العمال الباكستانيين عن غيرهم لما يتمتعون به من قوة بدنية وصلابة جسدية.

وصول المسافر إلى دبي لم يكن غاية وإنما وسيلة لإثبات وجود وتأمين دخل مادي يُعينه في الغربة وأهله في البلد.

لحظة الوصول لم يكن سيَّار مبهورا بشيء كما يظهر عادة على القادمين الجدد رغم أن مستقبله في المطار قد رتب له جولة في مدينة دبي التي كانت قد بدأت لتوها بالبناء والنماء، كان هادئ الطبع قليل الكلام طيب القلب والمعشر أبيض السريرة.

في يوم وصوله إلى الإمارات لم تدهشه دبي رغم بدء ذيع صيتها في المنطقة وحرص مُستَقبله في المطار على إظهار الفوارق له منذ اللحظة الأولى، كان أكبر من أن ينبهر بمدينة ناشئة ليست أجمل من مدن بلده وقتئذ وخاصة إسلام أباد[13] التي اختيرت عاصمة للباكستان في ستينات القرن الماضي بعد الانتهاء من بنائها حسب ما صممها مخطط المدن المشهور المهندس اليوناني كونستانتينوس دوكسياديس على شكل

13 إسلام أباد: عاصمة الباكستان وتعني مقر الإسلام، تأسست في عام 1966م تقع في شمال غرب البلاد ، تجاوز عدد سكانها 1 مليون ونصف نسمة.

قطاعات متعددة ينقسم كل منها إلى أربعة أقسام فرعية مفصولة عن بعضها بأحزمة خضراء وحدائق وساحات مفتوحة، ولا أكبر من كراتشي[14] العاصمة التجارية والعاصمة السابقة للبلاد، ولا حتى مدينَتَيّ بيشاور[15] وكويته[16].

منذ اللحظة الأولى لوصوله تحاشى شدة الحر وأشعة الشمس الحارقة خوفًا من عودة الرعاف إليه.

قضى سيَّار ليلته الأولى في دبي بين عشرة عمال منهم شيراز خان المستضيف، جمعتهم غرفة سقفها من سبست[17] وجدرانها من بلوك[18] مصقول بالإسمنت من الداخل مليئة بمسامير بقيت رؤوسها نافرة لتعليق ثياب قاطني الغرفة ومناشفهم المستعملة، بينما بقيت أحذية

---

14 كراتشي: أكبر مدن باكستان، تمثل المركز المالي والتجاري للبلاد، يتجاوز عدد سكانها 15 مليون نسمة، تقع على ساحل بحر العرب، وهي عاصمة محافظة السند، والعاصمة القديمة للبلاد قبل نقل العاصمة لإسلام أباد. فيها عدة جامعات

15 بيشاور: مدينة باكستانية وعاصمة إقليم خيبر بختونخوا. تقع المدينة قرب الحدود مع أفغانستان. تجاوز عدد سكانها 4 ملايين نسمة أغليهم من البشتون. من أبرز معالمها أضرحة لبعض الصحابة ممن شاركوا في الفتح الإسلامي..

16 كويته: مدينة باكستانية تقع غرب البلاد قرب الحدود مع أفغانستان. هي عاصمة إقليم بلوشستان وأكبر مدنه. يتجاوزعدد سكان المدينة مليون نسمة غالبيتهم من البشتون والبلوش

17 سبست: ألواح مصنعة من عدة معادن من زمرة التريموليت تستخدم في مجال البناء وتسقيف المنازل والعوازل الداخلية والخارجية وأنابيب صرف المياه والأدخنة والتهوية.

18 بلوك: لبن طوب، أحجار بناء اسمنتية مضغوطة

الجميع بالخارج أمام باب الغرفة المعدني المطل مباشرة على المشروع الإنشائي الذي يعملون فيه حُرصًا منهم على عدم دخول أي رائحة إضافية للغرفة الصغيرة التي لا تتجاوز مساحتها 12مترًا مربعًا سوى رائحة الطبخ وما تفوح فيه أجسادهم المتعرقة. فُرشت أرضية الغرفة ليلاً بمفارش إسفنجية متلاصقة حتى الباب بهدف استيعاب المقيمين الدائمين فيها وأي قادمين جدد.

ما أدهش سيَّار في ليلته الأولى حنين رفاق الغرفة حينما راحوا يتبادلون الحديث عن بلدهم الأم كقاسم مشترك في الاهتمام رغم تنوع الأقاليم واختلاف التوجهات، بدا له ذلك جليا حينما شرع في إفراغ أحشاء حقيبته بمساعدة مستضيفه شيراز خان وكأن ذلك حرّك فيهم مشاعر الحنين وأسلمهم لطوفان الذكريات.

صمت ساد لبرهة ثم كسره نصائح عدة جاءت للقادم الجديد من مستضيفه ورفاقه، منها من كان بطلب وأغلبها بدون.

قُبيل أن ينتصف الليل بقليل، ساد الصمت من جديد وبدأت معه عدوى التثاؤب بين قاطني الغرفة بعد أن افترشوا أرض غرفتهم الصغيرة وبدون غطاء توسد بعضهم أياديهم وغطوا في نوم عميق لا يضاهيه نوم في الدنيا اعتادوا عليه لمقارعة جليد غربتهم وصلف أيامهم كلما اشتدت عليهم المتاعب في قطاع الإنشاءات.

في اليوم التالي نهضوا من نومهم متعبين كما أمسوا، جمعوا أشياءهم وبعضًا من طعام الأمس وخرجوا وقت الشروق إلى أعمالهم في مكان الإنشاء.

هكذا كان يمضي نهارهم في ضنك وليلهم في أسى.

في أيامه الأولى لم ير سيّار في دبي فللاً راقية ولا عمارات فاخرة ولا أسواق كبيرة ولا سيارات فارهة كما هو عليه الحال الآن، كانت حياة دبي شأنها شأن باقي مدن وحواضر الدولة بسيطة في كل شيء يتقارب فيها الجميع بدون فوارق مادية كبيرة.

عاش سيَّار أيامه الأولى في دبي في حيرة من أمره بين اغتراب وعمل في قطاع الإنشاءات الذي لا يمكنه الاستمرار فيه خوفاً من عودة نزيف الرعاف الشديد إليه جراء تعرضه المباشر لأشعة الشمس وبين الرجوع بخفي حنين[19] إلى ما كان عليه من ضيق حال وعيش ببطالة وتعب من نوم.

قراره يومئذ بالرجوع أو البقاء كان صعبًا فالمغريات العاطفية كانت كثيرة له هناك في بلده خاصة انه متزوج وفي فورة شبابه لكنه بدون عمل، وتحديات الاغتراب كانت أيضا كثيرة خاصة الحرارة المرتفعة والرعاف والدخل البسيط...

هل كان على سيّار إلا المفاضلة والاختيار بعقل؟

---

19 رجع بخفي حنين: قصة أصبحت تضرب مثلا على من يرجع إلى أهله فارغ اليدين أو عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة

بتشجيع من حوله وخاصة شيراز خان بضرورة تجريب التغريد خارج البلد كانت رهاناته معقودة على ما يأتيه في قابل الأيام، صعوبة الجو والعمل في الإنشاءات فور بلوغه دبي أجبراه أن يُخبر مستضيفه بعدم قدرته على الصبر والتحمل، الذي حاول تهدئته أكثر من مرة عله يجد له عملا آخر بعيدًا عن الإنشاءات.

تساؤلات عدة دارت في ذهن الشاب..

هل صارت خسارتهُ فادحة في دبي لضياع في أمل الاستمرار هنا وخيبة في الرجوع إلى هناك؟

هل كان عليه أن يجري وراء قلبه ويرجع خائبًا إلى أهله وبلدته كما يفعل الخائبون ويقضي أوقاته عاطلا ومستهلكا؟

أصبح بقاؤه في الخليج تحديًا كبيرًا له، فأي بلد يرجع إليه وتحاصره الكوابيس من الخيبة، أي بلد يرجع إليه والفقر يضرب فيه الجذور، أي بلد يرجع إليه وفقيره يُهان فيه ألف مرة في اليوم ليستجمع قوت يومه، أي بلد يرجع إليه وفرصة العمل فيه صارت معدومة.!!

نعم كان عليه البقاء في دبي أو غيرها لإثبات وجوده ورجولته خاصة بعدما صار حديث رجوعه تلوكه الألسن بتنمر وسخرية؟

مرت أيام قليلة وتبددت حيرة الشاب حينما أخبره شيراز خان أن ثمة فرصة عمل زراعي قد تستهويه في منطقة العين البعيدة عن دبي.

لم يتوان سيَّار عن الموافقة والذهاب إليها لأنها فرصة له للخروج من مأزق الحيرة وإثبات الذات طالما أنها قريبة من اهتمامه فهو المزارع

وابن الريف الجبلي. ولا ضير في المسافة كونه غريبًا في دبي وغريبا في غيرها المهم أن يشتغل بعمل يناسبه ويفهم فيه.

في طريق صحراوي غير مخدوم ندرت فيه المحطات والخدمات كما هي الآن وكثر فيه الغبار والرمال المتحركة والحيوانات السائبة، توجه سيّار إلى العين برفقة أحد أبناء جنسيته العاملين بنقل السامان "البضائع" من دبي، وبينما كان الطريق إليها يركض خلفهما عادت بالشاب الأماني إلى هناك إلى بلدته الأم حيث الطبيعة الجبلية بسحرها الأخاذ ورحابتها الممتدة في أواخر الربيع وبين امتداد الكثبان الرملية هنا وتحولها بين يوم وأخر وعجيج الطوز (الغبار) وندرة السيارات العابرة وغياب المباني والخدمات على جانبي الطريق.

وصل الوافد الجديد إلى العين التي لم تكن بأحسن حال من باقي مدن وبلدات الدولة في مواجهة تحديات اقتصادية كانت تعيشها المنطقة كان أهمها محدودية البنية التحتية وبساطتها التي لم تعد تلبي احتياجات النمو السكاني والاقتصادي المتصاعد جراء ظهور النفط، وتقلب أسعار النفط وتذبذب عائدته وأثر ذلك على الاقتصاد الوطني الناشئ، هذا بالإضافة لتحديات الزراعة التي كانت تواجه صعوبات كبيرة بسبب الظروف المناخية القاسية الأمر الذي أثر بدوره على الإنتاجية والأمن الغذائي.

في مزرعة صغيرة مهملة من مزارع واحة العين مكتظة بأشجار نخيل ذابلة وأتربة متراكمة هنا وسعف مبعثر هناك، وبين أعشاب خضراء وأخرى يابسة وأغصان مكسورة وجريد متدلٍ، وفي غرفة من عريش مصنوع من جريد النخل المرصوص والمثبت بحبال مصنوعة من سعف النخيل.. بدأ سيَّار عمله النهاري ومسكنه الليلي.

رغم ترحيب صاحب المزرعة به، أيقن العامل الجديد أن عمله خلال السنة الأولى في المزرعة يتطلب جهدا مضاعفًا معتبرًا إياه تحديًا جديدا له في الخليج. فلما لا يقبل التحدي وهو الشاب العشريني المفتول العضلات المربوع الجسم لا الطويل الفارع ولا القصير المانع الجامع بين الفتوة والرياضة المتقن لأعمال الزراعة والمعتاد على العيش في الأماكن الجبلية.

مضت أيام البدايات على سيّار رغم غرابتها بقبول وبقي الأمل بغدٍ أفضل هو سيد الموقف، قام بهذا وفعل ذاك بدون اعتراض ولا تذمر، كانت دائما على شفتيه كلمة حاضر، حذف من قاموسه "لا"، أبدع ونال إعجاب صاحب المزرعة الذي خيَره أكثر من مرة بحرية التنقل متى أراد بين العمل في الواحة وبين العمل في تربية المواشي، وإن كان تعبًا وأراد أن يستريح ليوم أو يومين فلا مشكلة، وإن أراد أن يسافر في إجازة فلا مشكلة، وله وليس لغيره هذه المرونة والاختيار.

هو هنا في الواحة، وزوجته هناك في الجبل، مرت عليه شهور حمل زوجته بلهفة وترقب، انتظر وصول خبر إعلان أبوته على أحر من جمر.

كان الوقت طويلاً، مر الوقت المقدر للحمل ولم يصله شيءٌ منهم.

بعد شهر وصلته رسالة منقولة جاءته مع قادم جديد إلى المنطقة بددت حلمه وأخرجته من وعيه، رسالة أبكته وأبكت من حوله من رفاق في الواحة.

"للأسف توفيت زوجتك هي ومولودها أثناء الولادة".

يا لهول الخبر وكبر المصيبة، لم تأته التفاصيل إلا بعدما سافر إلى بلده وعرفها عن قرب ويا ليته لم يعرفها لأنها صارت تتغذى على صحته وأودت به إلى اكتئاب وعزلة ممتدة، تفاصيل الوفاة وضعته في دوامة حقيقية ولعنة ضاعت فيها أيامه وغيبت أمانيه، وسببت له فيما بعد أمراضا شتى لم يسمع عنها من قبل.

توفيت زوجته بسبب نزيف حاد أصابها أثناء الولادة بعد أن تردد أهله في إسعافها إلى مستشفى المدينة القريبة خوفًا من عرضها على طاقم طبي ذكوري لغياب الأنثوي فيه.

لم يصدق ما سمع منهم من تفاصيل صرخ بأعلى صوته:

- أي جهل هذا، أي عقول حجرية تلك

كانت الباكستان في حينها من الدول المتقدمة في نسبة وفيات النساء أثناء الحمل والولادة نتيجة مضاعفات يمكن الوقاية من معظمها أو علاجها، منها النزيف الحاد (نزيف يحدث في الغالب بعد الولادة)،

وحالات العدوى (تحدث في العادة بعد الولادة)، وارتفاع ضغط الدم أثناء الحمل (مقدمات الارتعاج)، ومضاعفات وإجهاض غير مأمون.

توفيت زهرة الحياة في مجتمع جبلي كان يُهيمن عليه كثيرون من رجال يقبعون تحت جهل متوارث وخوف قديم، رجال لا يأخذون نساءهم إلى المشافي من أجل ألا ينكشفن على رجال، رجال يعيشون في مجتمع تموت وتقتل فيه النساء رميًا بالرصاص أو طعنا بالسكاكين أو بالخنق أو الرجم أو الحرق بحجة الشك بأنهن "لطخن شرف" العائلة، مجتمع يعرض بناته المخطوبات وخاصة في الأرياف لـ "فحص الإصبعين" للكشف عن عذريتهن قبل الزواج خوفًا من تعرضهن لاغتصاب مسبق.

رغم أن غيظه كان شديدًا مما جرى من إهمال لزوجته ولمولوده سافر إلى بلده وفي نيته أن يفعل شيئا ما وألا يعود، لكنه خاب كما خاب من قبله كثيرون في واقع الحياة وفي الروايات.

سافر معربدًا ثائرًا كما فعل ألونسو كيخانو بطل رواية دون كيشوت[20] عندما خرج مصلحًا ومحاربًا لرد المظالم وتخليص البشرية من عذاباتها وجهل البعض في مجتمعه الإسباني لكنه فشل وبقيت

---

20 دون كيشوت: رواية من الأدب العالمي للأديب الإسباني ميغيل دي ثيربانتس سابيدرا (1547-1616م)، نشرها على جزئين بين أعوام 1605 و1615. اشتهرت الرواية بين العرب بالعديد من الأسماء مثل دون كيشوت ودون كيخوته وضون كيخوتي ودون كيخوط ودون كيخوطي، تدور أحداث الرواية حول شخصية ألونسو كيخانو، رجل نبيل قارب الخمسين من العمر كان مولعًا بقراءة كتب الفروسية والشهامة بشكل كبير. فقد عقله من قلة النوم والطعام وكثرة القراءة وقرر أن يترك منزله وعاداته وتقاليده ويشد الرحال كفارس شهم يبحث عن مغامرة تنتظر فروسيته وانصافه.

المظالم كما هي فلا حقوق رجعت ولا عقول متحجرة انعدلت.

عاد الشاب إلى أشجاره وواحته يشكو همه بدون مقدرة على فعل أي تغيير في عقول جبلية لا تتبدل في يوم وليلة، فمناطقهم الجبلية وفقاً لبرامج الأمم المتحدة الإنمائية كانت تحتل مرتبة متدنية جدا بسلم استمرارية التعليم والصحة ومستوى المعيشة على مستوى باكستان، مع بقاء القواسم المشتركة الأخرى مثل الدين والقانون الاجتماعي المشترك (الباشتون والي)[21] تحكم سلوكهم الأخلاقي وأعرافهم وتقاليدهم في مجتمع مقسم بين أفغانستان والباكستان، ففي الباكستان يقيم البشتون[22] في القسم الشمالي لنهر إندوس في مدينتي كويته الجبلية التي ترتفع 1900م عن سطح البحر ومدينة بيشاور والبلدات والقرى المجاورة التي يمتاز أهلها بالشجاعة والروح القتالية العالية والرفض لأي تدخل أجنبي في شؤونهم الداخلية أو التحكم فيهم أو التغيير بأفكارهم أو معتقداتهم، ولعل أفضل ما يُبرهن على ذلك مقاومتهم لاي تدخل اجنبي بحياتهم الداخلية وتشجيعهم على الزواج المبكر في سن مبكرة للمباهاة بالعدد

---

21 الباشتون والي: ممارسة الحفاظ على السنن والرموز التقليدية السمحاء لدى البشتون.

22 البشتون: مجموعة عرقية يتجاوز عدد أفرادها 53 مليون نسمة موزعين في مختلف دول العالم، موطنهم الأصلي جنوب نهر أمو في أفغانستان وغرب نهر السند في باكستان. ويشمل ذلك خيبر بختونخوا، وبلوشستان (إقليم في باكستان)، وغرب البنجاب وكشمير (تحديدًا ميانوالي وأتوك). تشمل مراكز المدن الكبرى في هذه المنطقة كلاً من بيشاور وكويتا وقندهار ومردان ومينغورا وجلال أباد. يتميزون البشتون بلغتهم البشتو. يعتنقون الإسلام. تعد القومية البشتونية من الشعوب الآرية (هندو-أوروبية)، التي حافظت على نقاء دمها إلى يومنا هذا وتظهر فيهم خصائص العرق الآري من صلابة الجسم وضخامة الحجم.

رغم ضعف إمكانياتهم المادية تراهم يقضون طيلة حياتهم يلهثون هنا وهناك من اجل إطعام أطفالهم وتأمين سبل عيشهم البسيطة.

استياءً لما جرى عزم الرجل ألا يعود إلى بلده إلا في حالة خطر وكأن شيئًا ما قد انكسر بينه وبينهم هناك، مرت سنون عدة واحدة تلوا الأخرى وبدأ قطار العمر يجري به بدون جلجلة ولا تفكير بإجازة أو سفر باستثناء مرتين حينما توفي والداه.

بعد انتقال سكني لوسط المدينة في حي الحصن قرب الواحة، أصبحت أراه يوميًا في مسجد الحارة الكبير ملتزما بجميع الصلوات الجماعية التي أحضرها، صمته أثار فضولي ودفعني أن أتجول بين خبايا ذاكرتي أقلب فيها كمًا هائلاً من الصور والانطباعات العالقة في تجاويف عقلي الباطني فأجد نفسي وكأنني أعرفه منذ زمن بعيد.

لا أدري كيف يمكن لرجل غريب عني أن يجذب اهتمامي هكذا بسرعة فسرعان ما تطورت علاقتي معه للجلوس معا في المسجد أو خارجه أو زيارته في غرفته الصغيرة بالواحة أو دعوته لزيارتي في شقتي أو عرض المساعدة عليه متى يحتاج ويريد.

لا اعرف كيف ولماذا تطورت العلاقة بيننا رغم أن البدائل كانت حولي كثيرة من أبناء جنسيتي وعروبتي.

مرت الأيام وتعاقبت الأعوام وتقوت العلاقة فيما بيننا ولكن دون تدخل لأحدنا في حياة الآخر سوى بالنصيحة إن طُلبت وحسب الأصول.

في إحدى المرات اعترف لي إن أول ما شده إليّ هو سماعه لحديثي مع بعض رفاقي العرب وقت خروجنا من المسجد عن الوفاء بين البشر وكيف أنها قيمة إنسانية لا يقدرها ويقوم بها إلا الأوفياء والمخلصون، وقتها احتسب أن ذلك الحديث إنما كان يخصه هو وإنني أتكلم عنه تمامًا، وكأنَّني عشت معه التجربة وشاطرته المشاعر، حتى شعر يومها إنني كنت اتحدث عنه تحديدًا.

حقا بدا لي سيَّار فريدًا للحد الذي لا يشبه معظم الرجال الذي أقابلهم واستمع إليهم يوميًا سواء زملاء عمل أو جيران أو رفاق مسجد، أكاد أجزم أنه جاءني في غربتي ليعوضني عن ذكريات رجال كادت أن تُغيبها كواليس النسيان وهموم الحياة، رجال يمتازون عن سواهم بعزة نفس وصبر يرافقهما صمت يخفي وراءه جبلاً من الآهات، بدا لي رجلا صبورا تسكنه روح تتسع لكل هذا الكون بما فيه من كائنات وأجرام، قلبه عنوان للرجولة والوفاء رغم كل ما فيه من أثار صدمة نفسية (Psychological Trauma) مزمنة أصابته كاستجابة عاطفية لفقد زوجته وابنه أثناء الولادة مما سيطر عليه شعور بالحزن الشديد والغضب والإنكار ولوم النفس وما يسمى بالطب النفسي اضطراب ما بعد الصدمة

فلم يتأقلم بمرور الوقت مع ما حصل وبقي رافضا لما جرى فتأزمت حالته النفسية وسيطرت عليه أعراض شتى علقته فيما جرى وأصبح لا يستطيع تقبلها ولا الخروج منها فكان دائم الاسترجاع لما حصل حتى ثقلت عليه النتائج وساءت حالته وكثرت عليه المشاعر السلبية الأمر الذي انعكس على تجفيف علاقاته الاجتماعية مع الأخرين وقطعها وتجنب أي شيء أو مكان قد يذكره بالجهل والظلم فابتعد عن بلده ولم يسافر إليه منذ سنوات طوال.

احترمت خصوصيته كما فعل هو وقدّرت له كل هذا الصبر لكنني نويت في نفسي تقديم المساعدة له حسب الإمكانيات والمعرفة رغم استغرابي من كل هذا الجفاء لبلده وأهله وتساءلت في نفسي إن كان الزمن قد ابتلع شعوره بالحنين إلى أهله وبيته الذي تربى فيه، إلى بلده الذي درج فيه أولى خطواته.

في إحدى جلساتنا، مرة قلت له:

- اختلف معك في مسألة التعامل مع الخطأ

وتساءلت:

- كيف لنا أن ننسى قطعة عزيزة من أعمارنا؟!

وقلت:

- لئن حاولت الانتصار في كل اختلافاتك مع الأخرين فسوف تفقد العلاقات معهم أو تتأزم، وهذا خطأ لأن كسب القلوب أفضل من كسب المواقف.

ثم أضفت:

- نصيحتي لك يا سيّار ألا تهدم جسورا بنيتها وروابطا أسستها بينك وبين الآخرين فلربما احتجتها في يومٍ ما. من حقك أن تكره الخطأ، لكن من الخطأ أن تكره المُخطئ لأنه قد يكون مجبرًا على ارتكاب فعله

- ولكنني حلفت وأقسمت بالله أنني لن أعود إلى هناك إلا لأمر جلل

- فعلا يا صاحبي عقلك جبلي كالحجر

- هذا ما حصل

- لكنك ذهبت

- ذهبت كما أخبرتك بعد وفاة والديّ

- إذًا الضرورات تُبيح المحظورات، ألا تعلم يا صاحبي أن رسولنا الكريم قال: "ليسَ الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّديدُ الَّذي يملِكُ نفسَه عندَ الغَضبِ"[23] ،

- ماذا تريد أن تقول؟

- أنت ضعفت أمام ما تعرضت إليه وكان صبرك عند الغضب صفرًا

- ما العمل الآن؟

- العمل أن تستغفر ربك وتتوب إليه وتفكر بعقلك لا بقلبك

- استغفر الله العظيم وأتوب إليه، ماذا تعني؟

---

23 "ليسَ الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ ، إنَّما الشَّديدُ الَّذي يملِكُ نفسَه عندَ الغَضبِ: حديث شرف رواه أبو هريرة، أخرجه البخاري (6114)، ومسلم (2609)

- يعني أن تبحث عن فتوى ليمين كان لمجرد نزوة، لا أظن فيه حنثا إذا فعلت، ليس فيه ضرر على أحد بل بالعكس تؤنس فيه قلبك الضائع وتصل رحمك المقطوع منذ سنين طويلة.

- وكيف أبحث عن فتوى؟

- يمكننا أن نتصل بالخط المباشر للفتاوي أو نذهب معًا إلى مختصين في الأوقاف

خمس وثلاثون عامًا لم ير فيها سيّار بلده بدون سبب مقنع، يا للعجب، بالنسبة لنا لا أعرف كيف كان ينقضي عامنا الواحد لنسافر كعائلة إلى بلدنا برا أو جوا لا يهم، المهم أن نكحل عيوننا بطرقاته وأحجاره وكل شبر فيه، وننعش قلوبنا بلمات مع الأهل والسهرات معهم حتى الفجر.

كما كنا مخطئين عندما كنا نبقى لعامين بدون سفر رغم وجود الموانع، عندما كنا لا نسافر كنا نتطلع للمسافرين بغبطة متمنين أن نكون بينهم أو نلحقهم لولا ظروف قاهرة تمنعنا من ذلك.

سفرنا إلى هناك كان يمنحنا تجديدا بالحياة ومزيدا بالأمل، كنا نشتمّ من بين رياحين السفر عطور الغوالي وعبق الأماني، كنا نسافر إلى هناك هروبًا من ضجيج وحلما بهدوء يرفرف فينا فوق القمم كطيور تقتسم الضحكات مع من تحب وتنثر البسمات أينما تريد.

- هل تصدق يا صاحبي أننا في كل ذهاب إلى هناك كانت تُسابقنا أنفاسنا قبل خطواتنا مثل طيور تُورد إلى مناهل الماء، قلوبنا تبقى خلفنا مضطربة عند الإياب .

كنا نسافر إل هناك أسرابا بدون ضجر، نهجر الوسن والملل، نُسامر الأهل في كل ليلة دون أن يدنو منا التعب. ننام هناك دون حسبان لليالي والساعات طالما قلوبنا تخفق بالأماني والمريحات، نعود وحيدين في طريق لا مؤنس فيه إلا حلم في عودتنا إليهم مرة أخرى بابتهاج .

طال سكوت الرجل وهو جالس كعادته قبل المغيب على دكة[24] المسجد قرب الواحة شاردا ينظر إلى البشر والحجر حوله، أصبح سيَّار لا يفارق المكان في المساء، حاله يقول: "ما أصعب الوهن وما أصعب العيش فيه"

بعد تعرفي عليه جيدًا، اقتربت منه في احدى المرات ممازحًا وبيدي كأسين من شاي الكرك وقلت له :

- لو كان عندك زوجة تُدللها وتدللك ما صار فيك هكذا

أعرض وجهه عني، لم يقل شيئا، حاولت أن أحادثه بشيء آخر، لاحظت حركة زم شفتيه ثم انفراجهما وكأنه يدمدم بشيء مبهم، سألته عن ما يقول، لم يرد مكتفيا بالرحيل عني ويده على عينه تمسح غبرة كما ادعى، كان خطأي جسيما عندما سألته :

- هل تبكي يا سيَّار

24 دكة: مجلس حجري مرتفع قرب حائط

لم يجبني فورًا، فقط لاذ بالفرار مني بعد أن نظر في وجهي نظرة حزن وقال :

- يا أخي إن الحر لا يبني سعادته على خراب الآخرين مهما تعاقبت عليه الأعوام.

- قد أفلحت يا رجل وأجزلت

تركني وابتعد عني كونه يرى في البعد عن القيل والقال بهجة للروح ونعيم للحياة.

أغبطك يا سيَّار على كمية صبرك على كتمان همومك وأحزانك وتجملك بصمت بليغ تعجز عنه الصناديد الكبار، لكنني أخشى عليك من الانفجار فالسدود مهما كانت منيعة لابد لها من تنفيس إذا ما داهمها هطول غارق أو باغتها زلزال مدمر.

لأنني أكره المغالاة والدروشة وأعشق البساطة، أعجبني في سيَّار بساطته في كل شيء في التعبير، في التصرفات، في المعاملات اليومية، رأيت خلف بساطته عُمقًا كبيرا. بساطته وصمته دائما يذكروننني بمقولة جلال الدين الرومي[25] "ثمة صوت لا يستخدم الكلمات.. أنصت إليه"

تركت مثله المكان ومشيت باتجاه المسجد القريب قبل أن يدخل الوقت ويُرفع آذان المغرب.

25 جلال الدين الرومي: (1207-1273م) شاعر وعالم بفقه الحنفية والخلاف وأنواع العلوم ومتصوف ولد في خرسان (حاليًا أفغانستان) ثم انتقل إلى بغداد وقونية التركية. تركت أشعاره ومؤلفاته الصوفية التي كتبت أغلبها باللغة الفارسية وبعضها بالعربية والتركية، تأثيرًا واسعًا في العالم الإسلامي وتُرجم منها الكثير إلى لغات متعددة.

يقولون في علم النفس إن من يميل للعزلة إنسان انطوائي (An introverted human being) وله أسبابه في تجنب التواصل الاجتماعي مع غيره فلا يفضل التواجد في الجلسات مع الأصدقاء لأن لديه مشكلة كبيرة أوصلته لعدم ثقة في ذاته وفيمن حوله. ويقولون إن السبب في ذلك قد يكون ذا منشأ طفولي كالتعرض لحالات من التنمر الذي يؤدي إلى اهتزاز شديد في الثقة وعدم الشعور بالأمان والراحة مع الآخرين، ويقولون أيضًا إن السبب وراء ذلك قد يكون فقدانا لعزيز أدخل صاحبه في حزن تدرج بمراحله الخمسة لكن أن يستمر ذلك الحزن لخمس وثلاثين عاما فهذا شيء عجيب وغريب! فهل ذلك من الإخلاص، أم أنه الحب، أما أنه الشعور بالذنب وجلد الذات أم أنه الحزن المعقد[26] أم الحزن الراقي[27]؟

لا أعرف لماذا أتقرب كثيرًا من سيَّار رغم غياب كبير بيني وبينه في أدوات التواصل الرئيسية، هو ناطق بالأوردو والبشتو ولا يعرف شيئا من الإنكليزية، فقط يمكننا التفاهم بلغة عربية "مكسرة" تساعده وأقرانه الشرق أسيويين على قراءة القرآن غالبا دون فهم صحيح، لكن رغم لغته

---

26 الحزن المعقد: أحيانًا يُسمى اضطراب الفقد المعقد والدائم. فيه تكون المشاعر المؤلمة طويلة المدى وشديدة ويصعب التعافي من الشعور بالفقدان والاستمرار في الحياة.

27 الحزن الراقي: حزن عميق ينبع من أحداث صعبة أو مشاعر خفية لا يمكن التعبير عنها بسهولة فلا يُظهر صاحبه مشاعره للآخرين. قد يستمر هذا الحزن لفترات طويلة، بل قد وقد يصبح جزءًا من شخصية صاحبه، من أسبابه فقدان عزيز أو خيبة أو وحدة أوأمراض مزمنة. من مظاهره النظرات الحزينة والصمت والتأمل والابتعاد عن الآخرين وعدم التحدث عن حزنه للآخرين.

الهجينة[28] تلك كان هنالك انسجاما غريبا بيننا نحن الاثنين وكأن اللغة المحكية لم تكن بالضرورة الأداة الأولى للتواصل بيننا بل يوجد الكثير من البدائل، أهمها الاهتمامات والأمور المشتركة.

أليس في عالمنا البشري يوجد لغات غير منطوقة مثل لغة الجسد[29] ولغة العواطف[30] نرسل عبرهم اشارات كدلائل واضحة لما تحمله عقولنا من أفكار وقلوبنا من مشاعر؟! أليست العواطف جسور عبور لعوالم الأخرين؟.!

إن كان تبسمك في وجه أخيك صدقة فما بالك أن كان في تعاملك معه ذوق واحترام وتقدير، أستغرب من غياب إشارات التقارب عند الكثيرين، تراهم يعاملون الأخرين بتكبر وتنمر وخاصة من هم أقل منهم

---

28 لغة عربية هجينة: ابتدعتها جنسيات (غالبا أسيوية) وافدة إلى أقطارنا العربية وخاصة الخليجية منها بهدف التواصل والوصول إلى سوق العمل العربي

29 لغة الجسد أو لغة البدن: حركات يقوم بها بعض الأفراد مستخدمين أيديهم أو تعبيرات الوجه أو أقدامهم أو نبرات أصواتهم أو هز الكتف أو الرأس، ليفهم المخاطَب بشكل أفضل المعلومة التي يريدون أن تصل إليه، ولقد اكتشف علماء النفس أن 7% فقط من الاتصال يكون بالكلمات و38% بنبرة الصوت و55% بلغة الجسد.

30 لغة العواطف: أو الحماس الزائد، وأحيانا تدعى التقعُّر في أساليب الكلام، غالبا ما تهدف إلى استمالة قلوب عوام الناس وقلب الموازين وإظهار الباطل حقًا، وأكثر ما يستخدم لُغَة العواطف السياسيون منهم قديمًا هتلر وموسوليني وكاسترو ولقد نهى عنها رسلونا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم حينما قال: (هلك المتنطعون) وهم المتعمقون في الكلام والمتكلمون بأقصى حلوقهم، والمتكلفون بالفصاحة واستعمال غريب الألفاظ ودقائق الإعراب.

دخلاً، يعاملونهم بلا أحاسيس ولا مشاعر ولا احترام، ترى في تعاملهم برودة وفي أحاسيسهم ثلج.

لقد أصبحت إشارات التقارب حاجة ضرورية يتوجب علينا استخدمها بمهارة في التواصل مع الأخرين دون تزحلق أو تملق أو نفاق، فمهما كانت علاقاتنا محدودة وقليلة مع الآخرين فإن كلماتنا الطيبة معهم من شأنها توليد مشاعر إيجابية لديهم وتبني معهم جسورًا من التواصل الإيجابي والفهم مثل لغة الجسد التي نستخدمها دون دراية في تواصلنا اليومي في البيئة التي نعيش فيها.

سألته مرة لماذا أنت هكذا صامت معظم الوقت ولئن تحدثت فكلماتك قليلة فأجابني أنه يشعر بالسعادة بهذا الأسلوب رغم أنه حاول تغيير أسلوبه هذا أكثر من مرة لكنه رجع إليه لاكتشافه انه الصواب كونه يرتاح فيه وليس مضطرا لتحمل الاختلافات الفكرية والشخصية مع الآخرين وتضييع الوقت بالمجاملات ومعاقبة النفس بالاستماع لأحاديث مكررة وتحليلات غير مرغوبة، وقال:

- ببساطة صديق صدوق خير من ألف،
- ولكن الإنسان بطبعة كائن اجتماعي يحب المخالطة والتنوع
- ضمن هذا الأسلوب أعيش محلقًا بأفكاري مما يجعلني حيويا ومتفائلا مع نفسي معزولا عما حولي من ترهات كي لا أضيع الوقت بالأحاديث المملة والنفاق الاجتماعي التي لا تؤدي إلا للهم والغم
- ولكن

- سَطِّح علاقاتك مع الناس تسلم، عمّقها معهم تندم، بالمختصر المفيد أنا أصنع عالمي حسب ما يستهوني لا كما يستهوي غيري

- تذكرني يا صديقي بقبيلة اللاكوتا[31] هل أنت منهم ههه؟

- ومنهم هؤلاء؟

- قبيلة تشاركك الصمت في طريقة العيش

يوما بعد آخر يعجبني هذا الرجل أكثر ويعجبني استقلاليته بالتفكير. ولكن نحن نعيش في عالم متسارع يجب أن نواكب تطوراته ونسير جنبًا إلى جنب مع مُتطلبات التغيير والتطوُّر فيه كونها سِمة من سِمات الحياة قبل أن يفوتنا قطار العمر ونقبع خلفه نادمين.

- هل تعرف يا سيَّار أن في محيطنا مدنا متطورة ومدنا خضراء وأخرى ذكية وأشياء جميلة تستحق أن نراها ونزورها ونستمتع بأوقاتنا فيها؟

- أين؟

- هنا في الإمارات، هل ستزورها أم ستكتفي بالانحباس وراء أحزانك إلى جانب أشجارك؟

---

31 قبيلة اللاكوتا: تعرف أيضًا باسم تيتون وتيتونوان («سكان البراري») وتيتون سو هي من قبائل السكان الأصليين لأمريكا المعروفين بهنود السهول. تمتاز طريقة عيشهم بالاصغاء الجيد وممارسة الصمت من خلال التدريب على طرقه. أفضل عن كتب عنهم وشخصهم الروائية الأمريكية لاكوتا لإيلا ديلوريا (1889-1971 عالمة أنثروبولوجيا وأخصائية إثنوغرافيا، وعالمة لسانيات، وخبيرة الممارسات الدينية والثقافية واللسانية لشعوب داكوتا ولاكوتا وناكوتا) التي دوّنت تاريخ الأمريكيين الأصليين الشفوي وأساطيرهم، وساهمت أيضًا في دراسة لغاتهم.

- إن شاء الله

- يا صديقي الحياة تتطور وعلينا مواكبة تطورها شئنا أم أبينا، تخيّل أن عملك الزراعي بقي كما كان عليه من بدائية في طرق الفلح والزراعة، ألن يكون الجهد المبذول عالٍ والمحصول قليل؟

صحيح أن هنالك صدمات قوية تدخلنا في حالة حزن قد تقصر وقد تطول، تأخذنا إلى حالة من الانطواء والابتعاد عن الأجواء المحيطة بنا التي تعودنا أن نتواجد فيها. لكن لأنفسنا وأبداننا حقوق علينا.

صحيح قد يكون الميل إلى العزلة والانطواء في حال الحزن أمر متوقع ولكن يجب أن يكون مؤقتا، ويعتمد ذلك على مدى عزيمتنا وقدرتنا على تجاوز الصدمات

أين الخطأ إن تقبلنا الأخر ومشينا معه في مسعاه إذا ما أراد مد يد العون لنا لإخراجنا من صدماتنا؟

كم هو صعب ومُحبِط أن يُقنع المرءُ نفسه أن شمسَ حاضره قد غابت فأوصد بابه أمام الآخرين ووقف بنفسه وحيدًا وسط ظلام دون أدنى محاولة منه لإشعال شمعة وطرق باب الغد من جديد.

ما أجدر بنا كبشر أن نسعى إلى التغيير والترويح عن النفس وفتح أبواب غدنا على مصراعيها.

ما أجدر بنا أن نهرب من كل إحباط حولنا ونبتعد عن السلبيين ونستزيد من مجالسة الإيجابيين.

- كن إيجابيًا يا رجل تكن بخير

ذكرتني يا سيَّار برئيسي بالعمل الأمريكي الجنسية خلال قيامه بتقييم أدائي السنوي في احدى سنوات عملي معه، بعد ثنائه على عملي وأدائي ومنحي درجة متقدمة جدًا في سلم التقييم (3.8 /4) قال لي ملاحظة واحدة، بالبداية ظننت أنها نقطة إيجابية لكنها كانت برأيه سلبية لأنها تُفقد صاحبها التركيز بالعمل والاستمتاع بالحياة، كانت النقطة هي عدم فصلي بين عملي اليومي في الجامعة وبين حياتي الشخصية ناصحًا إياي بأنه يتوجب عليّ كموظف أن أحصر العمل في وقت تواجدي في مكان العمل ليس أكثر، وأتفرغ لعائلتي بعد الدوام، بمعنى آخر يتوجب عليّ أن أعطي كل حق حقه. الصراحة وقتها استغربت من اختلاف المفاهيم بيننا موقناً أن اختلاف الثقافات والمخاوف سبب رئيس في كل ذلك .

أنت هكذا يا سيَّار تعطي للعمل جل وقتك وكأنك في سباق مع الزمن، هل تحاول من خلال شغلك تناسي واقعك ونفسك؟! لقد أصبحت يا رجل جزءا لا يتجزأ من المزرعة وأدواتها دون وجود أي خصوصية لك تأخذك بعيدا عنها حتى أينعت أشجارها وأثمرت شتولها لكن كله كان على حسابك. ضاعت أيامك سدى وهُدرت مقابلها عافيتك.

خرج عن صمته وقال:

- الحياة سرقت مني أغلى ما عندي
- يا صديقي الحياة لا تسرق شيئًا إنما هو أمر الله نافذ ولا بد لنا من قبوله .
- ولكن

- كما أقول لك، الحياة لا تسرق شيئا بل نحن من نُضيّع أعمارنا وراء العواطف ونُغيب عقولنا، نحن لصوص لأنفسنا

- إذًا

- أنصحك أن تكف عن الشعور بالذنب وتخوين الآخرين بما جرى لزوجتك وابنك وان ترضى بالقدر خيره وشره، قال تعالى {إن يمسسكم قرحٌ فقد مس القوم قرح مثله}[32]

صحيح إن فقدان شخص عزيز علينا هو تجربة مؤلمة ومحزنة، ولكنه جزء طبيعي من دورة الحياة نحن لسنا سببا فيها وإنما جزءا منها. نحن لا نختار من سيرحل عنا

حقًا أن الحزن والأسى الناتجان عن الفقد هما ردود أفعال طبيعية لكن يجب أن تكون مؤقتة فمعظم الناس يتعافون من هذه المشاعر بمرور الوقت.

لا ينبغي أن نلوم أنفسنا على فقد نحن لسنا سببًا فيه أو ننظر إليه على أنه فشل في حياتنا. بدلاً من ذلك يجب أن نتعلم من تجربة الفقد ونتقوى بفضلها.

أبدًا الفقد لا يعني انتهاء العلاقة أو الحب. نحن حريصون أن نحتفظ بذكريات وعواطف جميلة تجاه من فقدناهم، لكن لا يجب على تلك الذكريات أن تفصلنا عن الواقع.

يجب علينا أن نتعامل مع الفقد بعقلانية ومرونة لنحتفظ بصحة نفسية جيدة.

---

32 سورة آل عمران، آية 140

صحيح إن بعض الذكريات جميلة تعطينا طاقة ودفء وهمة لمواصلة الدرب لكن علينا أن نعيش يومنا ولا ننظر كثيرًا إلى الوراء، لأن تلك الذكريات مهما كانت لا تعيد لنا أصحابها.

الذكريات غالبًا ما تحمل في ثناياها أحزانا تحجبنا عن رؤية الواقع كما يجب، يومك هذا أمانة في يديك، ستفقده في غضون ساعات فلماذا لا تجعله سببا لغد جميل

اعلم يا صديقي إن أيقنت أن فقد زوجتك وولدك هو آخر المطاف في حياتك فاعلم أنك ستفقد الكثير والكثير فيها وستجلس وحيدا معزولا كما أنت في عالم لا يشبه عالم الآخرين ولا يجاريهم.

اعلم يا سيَّار أنك تعيش بنوبة فقدان لا تُطاق، لم تفتقد فيها شخصا عزيزا وحسب بل فقدت كل جميل في الحياة، فقدت ابتسامتك الصادقة وصوت ضحكاتك وشغفك وأملك بالحياة من جديد، افتقدت للنسخة القديمة منك.

من المفروض أن نكون متيقنين أن الحياة لم تسرق منا شيئا، قدرُ الله خُطَّ لنا وفيه حكمة لا نعلمها.. وجب علينا الرضى والتسليم لأنه سبحانه وتعالى أعلم منا بما هو خير لنا.. ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أُسوة حسنة

- كفى يا سيَّار، فقد مضى فينا العمر هكذا بدون شعور ولا إنذار، فجأة وجدنا أنفسنا في تغيير متسارع، وجوهنا شاخت، أجسامنا هزلت، وشعرنا شاب وكثير منه تساقط، وماذا بعد؟ اخرج يا رجل من عزلتك وانزع عن نفسك ثوب الكآبة.

- إن شاء الله
- أتدري متى تحلو لنا الحياة ؟
- متى؟
- قُل أنت!!
- عندما نرضى بما قسمه الله لنا
- ممتاز، وهل أنت راضٍ بما قسمه الله لك؟
- طبعًا
- جميل جدا ولكن الأجمل أن نعيش هذا الرضا
- أكيد
- لماذا أنت دائما متكدر ومعزول عمن حولك؟
- ظروف
- الظروف نحن من نصنعها لا هي من تصنعنا
- ما عليك يا صديقي إلا أن ترضى بما قسمه الله لك وقدره عليك فكما قال سيدنا عمر رضي الله عنه وأرضاه "ستمضي أقدارك على كل حال، فاجعلها تمضي وأنت راضٍ عنها، فلربما ثواب رضاك يرضيك!."
- إن شاء الله
- مهما كانت حظوظك في الدنيا قليلة فسيجزيك الله على رضاك بها وصبرك عليها فارض بما قدره الله تؤجر

الحياة تتطلب منا الكثير من الصبر والرجولة كما تتطلب منا الإخلاص والوفاءً لذكرى من تركونا، نحن اليوم هنا وهم في عالم آخر، نحن أحياء وهم أموات فـ" إن الحي أحق بالجديد من الميت"، هم ذهبوا

ونحن ذاهبون أيضًا، كل منا بدوره، لكن ما زال لدينا فرصة لنعيش، فأرواحنا ما زالت في أجسادنا وقلوبنا ما زالت تنبض في صدورنا، هل استفرغنا الوسع في عيش الحياة كما يحب الله ويرضى.

- اخرج يا رجل واستمتع بالحياة، فالحياة هنا سلسة ورحبة وتستحق أن تُعاش

أليس الوسع يا صديقي يُشير إلى انشراح في القلب وهدأة في الروح ورحابة في الصدر؟ أليس بذلك تغنى الشعراء وسال من أجله مداد الأقلام؟ على عكس الضيق والعيش في أماكن ضيقة ومغلقة كالأنفاق والمصاعد التي تثير بالنفس الاكتئاب فتلجم اللسان عن الإيضاح والقلب عن الانشراح.

لك أن تعلم يا سيّار أننا نعيش هنا في جنة دنيوية، نحن محسودون على طبيعة العين وجماليتها، هل تعلم أن أكثر ما يعجب زائر العين والمقيم فيها هدؤها الرصين واتساع شوارعها وكثرة مسطحاتها الخضراء والعيش في وسطها قرب الأسواق والمحال التجارية المتنوعة، عيش يخرجك عن المألوف ويقربك أكثر من الناس ويعرفك على جزئيات من الحياة كنت لا تعرف عنها شيئا من قبل.

في شوارع المدينة أي مدينة تقرأ قصصًا حقيقة في وجوه الناس، تعيشها عن قرب حينما تتعرف إليهم وتقترب منهم أكثر. فما بالك إن كانت هذه الشوارع وهؤلاء الناس يعيشون في مدينة تغمرهم بالسعادة كمدينة العين التي تقوم برعايتهم وتسهر على راحتهم، تأخذ بأيديهم إلى

النجاح، تُبارك لهم الجهود، وتُثمن الأداءه، وتعمل على تحفيزهم وتشجيعهم.

حذارِ يا سيّار أن تترك كل هذا الجمال حولك وتتجاهل كل هذا الألق والتطور في العين وتحبس نفسك في ذكرياتك المؤلمة، حاول أن تخرج نفسك من حاضرك المحزون بدلاً من أن تعيش على ذكرياتك وماضيك. فوالله ما من أحد منا إلا وعنده الكثير من الهموم والأحزان فوراء كل باب في المدينة وفي كل ركن منها هنالك ألف حكاية وحكاية.

رغم مرور سنوات عديدة على تركه لبلده، لا زال سيَّار يتذكر تفاصيل يوم سفره الأول عن أهله ومجيئه إلى سواحل الخليج العربي، كيف قامت أمه وزوجته بعيون حمراء لامعة بطهو الطعام وإعداد وجبة إفطار شهية وخبزا طازجا لجميع من حضر الوداع من أهل وجيران وتجهيز زوادة المسافر، إفطار لم يكن شهيا ولا مقبولا أبدا لامه وزوجته وله ولا حتى لأبيه الذي كان قابلا للانفجار في أي لحظة .

ما زال يتذكر كيف حمل حقيبته الخشبية المحشوة بخيرات البلد وهمّ بالخروج. وكيف كانت زوجته تنظر إليه خلسه وعيناها حمراوان رغم محاولتها تحاشي نظراته متظاهرة بالقوة والانشغال في شؤون البيت، وكيف تسابقت مع من كان موجودا لحظة الوداع لعناقه وتقبيله أمام جميع الحاضرين كاسرة بذلك أعراف وعادات المنطقة، وكيف كان قلبها يكاد ينفطر من شدة الخوف من أي قادم مجهول، وكيف هرع أبوه

بإزاحتها عنه ودموع عينيه قد تجمدت في مأقيها لكنه هو نفسه حضن ابنه المسافر بشدة ورتب على كتفيه قائلا بصوت حازم فيه غصة "هيا يا رجل ستنطلق السيارة إلى المدينة وأنت مازلت هنا أخاف عليك التأخير، اذهب رعاك الله و أعادك إلينا سالمًا غانما" .

يتذكر أيضًا كيف تقدم مضطربا نحو باب الخروج من دارهم مخفيا قلقه المريب، وكيف أطلق قبلة في الهواء نحو الجميع ولوح بيده اليسرى التي كانت لا تحمل شيئا إلا الجواز مودعا ومندفعا خارج البيت بسرعة وهو يقول "استودعكم الله".

وكيف كانت زوجته الصغيرة لا تتمالك نفسها أمام المشهد رغم نهر عمها لها ولغيرها فانهارت باكية وأسرعت باللحاق به لأمام باب الدار وفي يدها تذكار تريد أن تعطيه إياه وكيف رمته باتجاه السيارة الناقلة فالتقطه وهو يُلوح لها مودعًا وكيف راحت تتأمله وهو يبتعد عنها وتقول في سرها "لا تطول علينا الغيبة" وكيف همت بسكب ما بيدها من ماء خلفه كعادة النساء في رش الماء أمام البيوت في كل صباح، وكيف صاح عليها عمها ألا تفعل ذلك الصباح لأن سكبه وراء المسافر نذير شؤم على من يسافر حسب العادات.

ويتذكر أيضًا يوم وصوله الأول للإمارات في شهر يونيو من سبعينيات القرن الماضي وقضاء أيامه الأولى في دبي مشتغلاً مع قريبه شيراز في أعمال الإنشاءات والبناء وكيف كان ذلك سببا كافيًا له لعمل مقارنات بين ما تركه في بلده من جماليات بلمة الأهل ووجود جيش بشري كبير حوله وأمطار وفيرة وطقس معتدل وزروع وأشجار وينابيع،

وآمال شعبية كبيرة بعد فوز حزب الشعب بأغلبية أصوات الانتخابات البرلمانية في 1970 بعد أن أصبح ذو الفقار علي بوتو حاكمًا للبلاد الذي أعلن بدوره عن برامج إصلاحية واسعة في الاقتصاد والتعليم الهادفة إلى تحسين القطاعات الإنتاجية في البلاد وزيادة فرص العمل للشباب وتحسين الأجور، وبين وما وجده في دبي من حرارة قائظة وصحراء ممتدة وساعات عمل منهكة ومساكن مبعثرة وطرقات بحصية غير مسفلتة وتيار كهربائي غير موصول لكل المساكن وشح في مياه الشرب.

مازال يتذكر سيَّار كيف كانت دبي بدون بنايات يُحكى عنها وبدون فنادق مصنفة، وبدون شركات كبيرة ولا حتى مؤسسات معتبرة ولا مواصلات عامة ولا حتى خاصة إلا اليسير منها.

بينما كان يستمتع في استعراض شريط ذكرياته تلك، في إحدى المرات صارحني بالقول:

- كل شيء راح، لم يبق عندي إلا الذكريات، الصراحة لا أجد في الوحدة خصاصة ولا ضيق، لا أرى فيها أي ألم أو عناء. أجد فيها ارتياحا يبعدني عن رزايا الحياة، أجد راحة غامرة حينما أرى الأشياء من بعيد، لا أجد مشقة في قضاء ساعة أو ساعتين أو حتى خمس ساعات بدون التحدث مع أي شخص أخر. لست أنانيا ولكن أريد أن افعل الأشياء لوحدي

ذكريات البدايات وطيف زوجته المتوفاة منذ عشرات السنين كانوا أنيسه في المغترب، زوجته هي الشيء الأهم الذي بقي عالقا في ذاكرته،

يراوده طيفها بلا هوادة أينما تحرك، صحيح أن الغربة أنسته كل شي هناك، لكنها لم تنسه زوجته والبراءة التي كان يراها فيها.

أخبرني مرة أنه لم يبك كثيرًا على وفاتها لأنه متأكد أنها لم تمت. لأنه كان يراها كل ليلة أمام غرفته في الواحة تضيء له وحشة الليل من شّدةِ بياضها كأنها ترشده إلى مكان راحته.

مرت على سيّار سنون عجفاء، وهَجَمَ عليه الكِبرُ، وتثاقلت عليه الملمات، صرت تسأله عن أشياء كثيرة في حياته يقول لك نسيت، تسأله عن عام كذا وتاريخ كذا يقول لا أعلم فيهم شيئا كأنه أصبح مصابًا بالزهايمر [33]ونسي كل شيء في ماضيه وحاضره ولم يبق منهما إلا ذكرى زوجته وبضع أشجار نخيل يحرص على خدمتها في مكان عمله أعطى لكل واحدة منها اسما، اثنتان منهن كانتا متميزتين في كل شيء، الأولى كانت

33 الزهايمر: (**Alzheimer**) أو خرَف الشيخوخة هو حالة مرضية وليس جزءًا طبيعيّاً من تقدّم العمر والشيخوخة، وهو أحد أكثر أشكال أمراض الخرف (**Dementia**) انتشارًا. يتسبّب الزهايمر في إحداث مشاكلَ في الذاكرة والتفكير وطريقة التصرّف نتيجةً لحدوث تغييراتٍ مجهريّةٍ في خلايا الدماغ، عادةً ما يبدأ بطيئًا ويزداد سوءًا بالتدريج مع مرور الوقت. يبدأ عادةً بحدوث صعوبةٍ في تذكر الأحداث الأخيرة، ومع تقدم المرض، تظهرُ أعراضٌ تتضمن مشاكلاً في اللغة وتقلباتٍ في المزاج، وضعفًا في الدافع، وعدم القُدرة على العناية بالنفس، ومشاكلاً سلوكية. مع ازدياد سوء حالة الشخص، فإنهُ غالبًا ما ينسحبُ من بيئة الأسرة والمجتمع. وتدريجيًا، يفقدُ الشخص وظائفه الجسمية،

المؤلف في سطور

د. محمد محمود أسعد

عربي سوري من مواليد محافظة إدلب

بلدة النيرب 1967

عضو اتحاد كتاب وأدباء الإمارات

مستشار ثقافي بالاتحاد الدولي للكتّاب العرب

مستشار ثقافي بالأكاديمية الدولية للكتاب والأدباء العرب

صدر له حتى الآن:

رواية بين إدلبو وجلفار

كتاب عربيات

رواية فصول

رواية صابرة اسمها شام

رواية بقايا رجل

رواية أرض الدهب

رواية أساور من حديد

كتاب سكر وسط

كتاب قطرات منثورة

رواية من أبكى حلب

كتاب مجرد همسات

رواية عرجون الواحة

م